

الكتاب الأول

وخز كان

أحمد كمال زكى

قصص

المجلس الأعلى للثقافة

اهـــــــــداء 2004
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
القاهرة

وَخْزٌ كَانْ

أحمد كمال زكي

لجنة الكتاب الأول

إبراهيم فتحى (مقرراً)
إبراهيم عبد المجيد
حسين حمودة
خيرى شلبى
عبد العال الحمامصى
كمال رمزى
مجدى توفيق
محمد رجاء عيد
محمد عبده محجوب
محمد كشيك
مهدى بندق
يسرى حسان

مدير التحرير/ منتصر القفاش

إخراج فنى/ هشام نوار

التصميم الأساسى للغلاف محيى الدين اللباد + أحمد اللباد
لوحة الغلاف / هشام نوار

- ٦١ -

وَخزّكَانَ

قصص

أحمد كمال زكى

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٣

إهـــداء

إلى أمي .. التي أترعتني بالحكايات المدهشة

وإلى أبي .. الذي روى شجرة حكاياتي لتنمو وتُزهر ....

وإلى إخوتي .. نبض حياتي

أهدي بعضا من دمي .

إهـــداء خاص

الى روح أبى

الذى باغتنى فجر ثالث أيام عيد الفطر المبارك (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)

ومات بين يدى !

إليه فى عالمه المدهش

أهدى عالمى الخاص .

تتويج فارس

- ١ -

من فوق فراشي ، على الحائط في وضعه المعتاد ، رأيته .. سيف جدى، وقد أصابته أنيميا شديدة ، وأكل عليه الدهر وشرب ، وكل مرة كان يترك عليه البقايا ، حتى أصابه بتخمة من الصدأ .. لدرجة أننى أخاف التقاطه من على الحائط لتنظيفه! خشية أن يتهشم بين يدى .

برغم هذا الوهن الواضح على السيف .. إلا أننى أشعر بالأمان لوجوده .. فقد حقق جدى أمجاداً كثيرة بهذا السيف .. فما كان فى قريته سيف يقف فى وجه سيفه ، ولا كان فى القرية رجل يفكر أن يكون ندا لجدى .. تمتمت فى خشوع :

- رحمك الله يا جدى .

نظرت إلى ما كتب على الحائط أسفل السيف مباشرة ، وقرأت باستمتاع :

- ليلى ..

يا لها من فاتنة . أحبها بكل جوارحى .. لكنها لا تُعرنى أدنى اهتمام .. تنظر إلىَّ بضيق وازدراء بينما تنظر إلى "سامى" بابتسامة ساحرة .. برغم أننى أشيك وألطف منه .. لكن يبدو أن هناك أسبابا أخرى غير الشياكة واللطف تجذب المرأة إلى الرجل . أغمضت عينى . تخيلتها تنام بجوارى على الفراش ... انتفضت .. طردت هذه الفكرة السيئة من رأسى .. أعدت التخيل .. تخيلتها هذه المرة تجلس بجوارى فى (الكوشة) .. برغم رفضها حبى سأتزوجها .. تمتمت :

- ما لا يؤخذ فى الواقع ..يؤخذ فى الخيال .

أخيرا لاقت فكرة نومها بجوارى القبول .. رأيتها على فراشى فى قميص نومها ، جميلة جدا .. تمتمت :

- أحبك "ڤينوس".

غرست رأسى بين نهديها .. ونمت .

- ٢ -

فى الصباح لم تكن بجوارى ، قلت بتأفف ورائحة النوم لاتزال فى صوتى :
- أوهام أخرى ... !؟

تذكرت جيداً ... مازال السيف قابعًا بمكانه .. طلبت شهادته على ما حدث أمس ... قل يا سيف ..قل إنها حقيقة وليست أوهاما .. لم يرد السيف .

- ٣ -

وضع السيف على الحائط لا يروق لى . قررت أن أحركه من موضعه ، تذكرت جدى ... عدلت عن الفكرة .. وانصرفت .

- ٤ -

فى الشارع قابلت "حسنين" - صديق الطفولة - تبادلنا التحية والسؤال المكرر - الممل - عن الصحة والأحوال .. ثم بادرنى قائلاً :

- هناك موضوع مهم .. أريد أخذ رأيك فيه .

سألته باهتمام يدفعنى الفضول الشديد :

- بخصوص من ؟

- قاسم ..

تجمدت ملامح وجهى ، وسرت رعشة فى جسدى عندما سمعت هذا الاسم اللعين ؛ فهو أشر أهل المنطقة .. بل أشر خلق الله على الإطلاق .

- ٥ -

حسنين : لن أتنازل عن حقى يا قاسم ..

قاسم : لاحق لك عندى .

حسنين : وعمل ثلاثين يومًا .. هل نسيته يا ظالم ..؟

قاسم : لم أنس .. ولكن لن أعطيك شيئًا .

حسنين : ربنا على المفترى .

هكذا حكى لى الجيران . إذن هذا هو الموضوع المهم الذى كان يريدنى حسنين من أجله .. سرت تلك الرعشة اللعينة فى جسدى . نظرت إلى السيف .. مازال قابعًا فى مكانه لم يتحرك ، دقات متتالية على الباب اصطدمت بأذنى .. تبينت ملامح الطارق ، قلت مرحبًا :

- أهلاً حسنين .

لم يرد تحيتى .. بل دلف إلى حجرة نومى مباشرة ، وقبل أن يجلس قال :

- باختصار .. أكيد علمت بموضوعى مع قاسم . أنا طالب مساعدتك . لابد أن يعود لى حقى .

تذكرت جدى . كان لا يغمض له جفن حتى يرد الحق لأصحابه .. قلت بخشوع :

- رحمك الله يا جدى ..

قبل أن أقول رأيى .. تركنى حسنين .. نظرت للسيف .. ونمت .

- ٦ -

ثمة ارتباط بين هذا السيف الهزيل ، وبين إحساسى بالأمان . تساءلت .. لماذا لا أستخدمه .. تذكرت جدى .. عدلت عن الفكرة .

- ٧ -

تعجبت .. لقد تحرك السيف من مكانه . لم يتهشم كما كنت أعتقد . امتدت يده تلتقط السيف . نظر إلىَّ بطريقة أفزعتنى . لفتت نظرى تلك القبعة الغريبة التى يحملها رأسه، والدرع الورقى الذى يحتمى به .. ثم تلك الابتسامة الواثقة ، حدجنى بنظرة قاسية ، ثم قال :

- ألا تعرفنى ؟!

تذكرت أننى لا أعرفه .. برغم ذلك الرباط الذى يربطنى به ، ويجعلنى أبدو وكأننى أعرفه تمام المعرفة .. أشعر أنه يسكن بداخلى .. إلا أننى لا أعرفه . أعاد السؤال بقسوة .. قلت بسرعة :

- لا ..

انتصب فى وقفته ، ورفع السيف بطريقة استعراضية ، ثم قال باعتزاز غلف نبرة صوته المتحشرج :

- أنا الفارس المغوار « دون كيشوت » .. قاهر طواحين الهواء .

رددت بلاهة :

- دون كيشوت ؟!

ثار السيف بيده .. حدجنى بنظرة قاسية ، ثم هوى بالسيف على رأسى .. صرخت . قمت فزعًا من النوم . كان الأفق قد لفظ جزءاً من الشمس .. جذبت طرف البطانية حيث كانت معزولة فى طرف الفراش .. وواصلت النوم .

- ٨ -

ثمة أشياء تفرض نفسها على أحلام الإنسان وأوهامه .. فقد أنسانى دون كيشوت أن أدعو ڤينوس لتنام بجوارى ليلة أمس .

- ٩ -

مازلت أذكر تلك القبعة الغريبة ، والدرع الورقى .. والابتسامة الواثقة . كم أثر فىَّ هذا الدون كيشوت .. لقد أنسانى حتى أن أنظر

نظرتى المعتادة لسيف جدى العتيد .. مازال قابعًا فى مكانه .. كيف تحرك إذن ليلة أمس فى يد دون كيشوت ؟

فكرت فى استخدام السيف .. يجب أن أبعده عن هذا الحائط .. تذكرت جدى .. قمت مسرعًا قبل أن أعدل عن الفكرة ، وانتزعت السيف من على الحائط .

وهنت عظامه .. لكنه لم يتهشم .

- ١٠ -

فى الشارع .. أستقبلت اسقبالا غريبا .. فقد أشاع حسنين أننى سأهشم عظام قاسم وأجعله لا يصلح ببصلة ، وأعيد الحق لأصحابه . تعجبت من كونى آخر من يعلم بتصريحاتى . الكل يدعو لى بالتوفيق .. توجونى فارسا للمنطقة .. راقت لى فكرة الفروسية ..لم أستطع التنصل من تصريحاتى التى أذاعها حسنين من خلال "رويتر" ..تلقيت الدعاء لى بالفوز .. ووعدتهم بأن أبذل ما فى وسعى ..

- ١١ -

لو قابلنى قاسم فى ذلك اليوم .. لتحطمت أسطورة (فارس المنطقة) قبل أن تبدأ .. لكن الله سلم ...

- ١٢ -

وضعت سيف جدى بجوارى على الفراش ، وسألته المشورة .. لم يرد .

(ما لا يؤخذ فى الواقع .. يؤخذ فى الخيال)

جاءت ليلى - كالمعتاد - لتنام جوارى فى الفراش .. قام السيف مذعورا إلى أحد أركان غرفة نومى . غريبة .. نظرت إليه .. فركت عينى .. كان السيف يحمل القبعة الغريبة والدرع الورقى ، والابتسامة الواثقة نفسها .. نظرت إلى ليلى .. ذهلت .. إنها تحمل أيضا تلك القبعة الغريبة ، والدرع الورقى ، والابتسامة الواثقة .. غمغمت :

- أوهام ..

تجاهلت كل شىء .. نظرت إلى جسدها المرمرى النائم بجوارى على الفراش .. خبأت رأسى بين نهديها .. وتمتمت :

- أحبك ڤينوس .

- ١٣ -

فى الصباح ..كاد الباب ينخلع من الدقات المتلاحقة عليه .. قمت فزعًا .. مازال السيف نائمًا بجوارى .. أيقنت أنها أوهام تلك التى رأيتها أمس . فتحت الباب ، قلت مُرحبًا :

- أهلاً حسنين .

لم يرد التحية ، وقال بحماس :

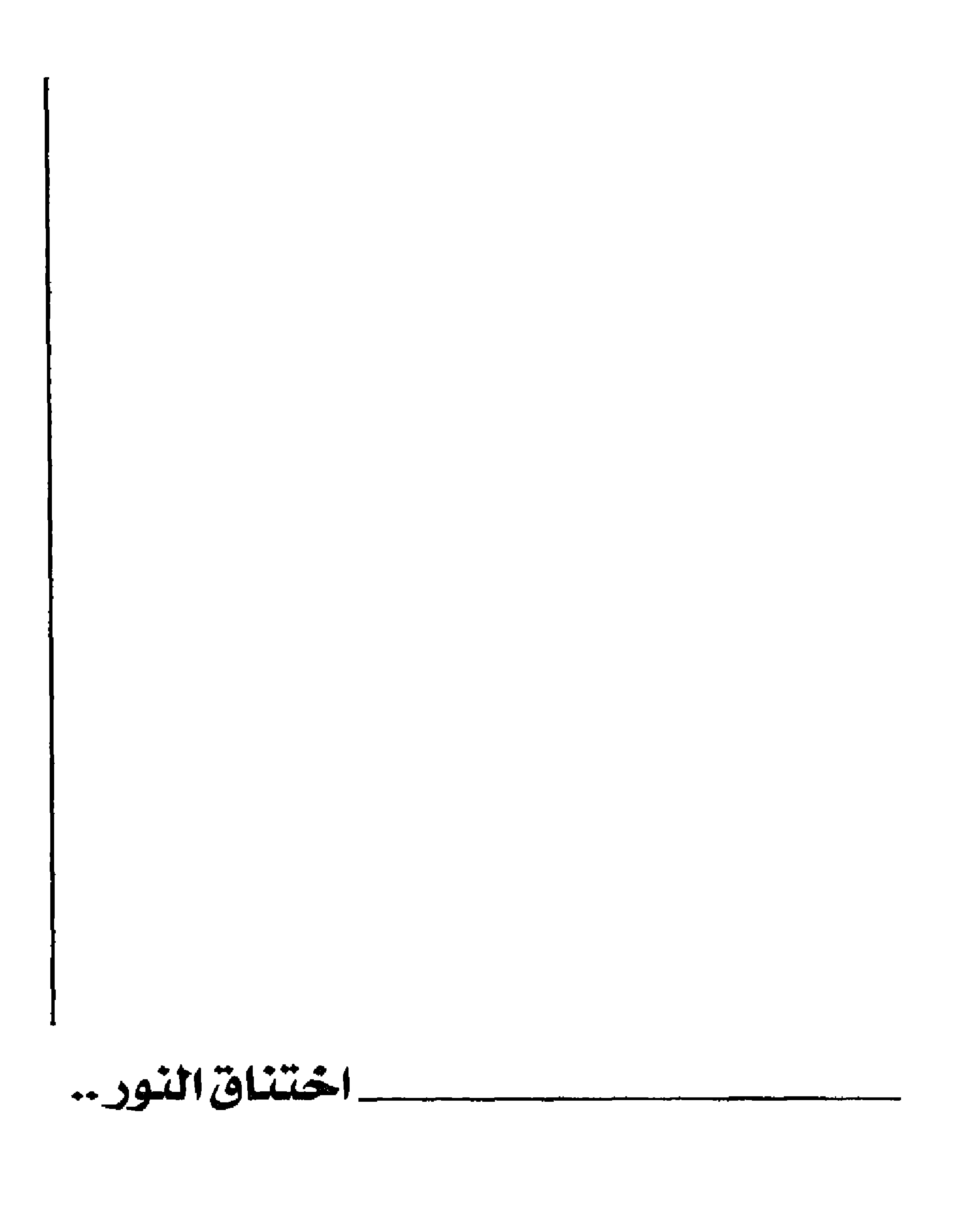
- قاسم وأهل المنطقة كلهم فى انتظارك .. فاليوم يوم المواجهة .. وعودة الحق إلى أهله .. ودفع الظلم عن المظلومين .

لم أعقب على كلام حسنين ، وإنما شعرت بهذه الرعشة اللعينة .. نظرت إلى السيف على فراشى .. تذكرت جدى .. قلت بصوتٍ عالٍ :

- رحمك الله يا جدى ..

- ١٤ -

بمجرد أن وطأت قدماى أرض الشارع .. سمعت التشجيع والدعوات بالنصر .. ثم وقف الجميع راسمين دائرة بشرية فى المنطقة .. كنت أنا وقاسم فى وسطها .. كان السيف فى يدى . نظرت إلى الوجوه التى أمامى.. شعرت بالسيف يتهشم فى يدى .. لفت نظرى وهو واقف بين أهل المنطقة .. وعلى رأسه القبعة الغريبة ، والدرع الورقى .. ومازال يحمل تلك الابتسامة الواثقة .



ازداد عدد الأطفال .. وتعالى صياحهم الذى ذاب فى تلك الجلبة والفرقعة الناتجة عن دق علب المسلى الفارغة ، وقطع صفيح صغيرة بعصى دقيقة يقبضون عليها بأطراف أصابعهم اللينة . كانوا يصيحون بانتظام وبكلمات ولحن موروثين :

" يا بنات الحور .. سِّيبوا القمر " ..

كانت أمى ونحن فى طور الطفولة تأخذنا معها إلى عالمها الأسطورى من خلال حكاياتها الجميلة .. ست الحسن والجمال .. سندريلا... أمنا الغولة .. وغيرها من الحكايات المثيرة .. كانت أمى شهرزادنا .. بقدر ما كانت حكاياتها تثيرنا ، وتفزعنا أحيانًا ، بقدر ما كنا نلح عليها كى تعود فتحكيها لنا مرة ثانية وثالثة ، وعاشرة .. وإلى ما لا نهاية .

كان الملل لا يجرؤ على الاقتراب منا مادامت تأخذنا معها أخذا إلى عالمها الممتع .

" القمر مخنوق ... وماعندناش خبر" ..

عندما سألت أمى عن حكاية هذا القمر المخنوق .. قالت بأسطوريتها المعهودة :

- بنات الحور يحطن به من كل اتجاه ..حتى ليكاد يختنق ، فنوره لا يصل الأرض .. لا يؤدى رسالته .. كيف لا يختنق إذن ؟ وصياح الأطفال وجلبتهم يفك عنه الحصار .

كان لكل شيء عند أمى تفسير تفوح منه رائحة الأسطورة .. وكنت أحب أن أسألها عن أشياء كثيرة ، لأشم تلك الرائحة المحببة إلى نفسى .

"القمر مخنوق .. وماعندناش خبر" ..

ترى .. هل لو عندنا خبر مسبق ، كان سيتغير شيء .. كأن لا يختنق القمر مثلاً ؟!

سؤال سخيف ، تفوح منه رائحة واقعية فجة .. تزكم الأنوف .. أنى هذه الرائحة من رائحة حكايات أمى الرائعة ؟!

كان القمر حزينًا .. وقد انزوى فى زاوية من السماء ، شاحب الوجه ، تبدو عليه آثار الإرهاق ، وكأنه خارج لتوه من معركة مرهقة .. أو ناج لتوه من محاولة لخنقه . كان الأطفال لا يزالون فى صياحهم المنغم ..

" يا بنات الحور .. سيبوا القمر " ..

- ولكن .. لماذا بنات الحور بالذات يا أمى ؟

يأتينى صوتها دافئًا يدغدغ أذنى :

- لعلهن يهمن به حبًا .

- وهل من يحب شخصًا يسعى لخنقه؟

- أحيانًا .

" القمر مخنوق .. وماعندناش خبر" ..

بدا وكأن القمر يسترد نضرته ، وتألقه . ساعة كادت تقضى على حياته ، ويموت مخنوقا بعشقه . تساءلت وقد اكتسى صوتى بأسى يمتزج بحيرة :

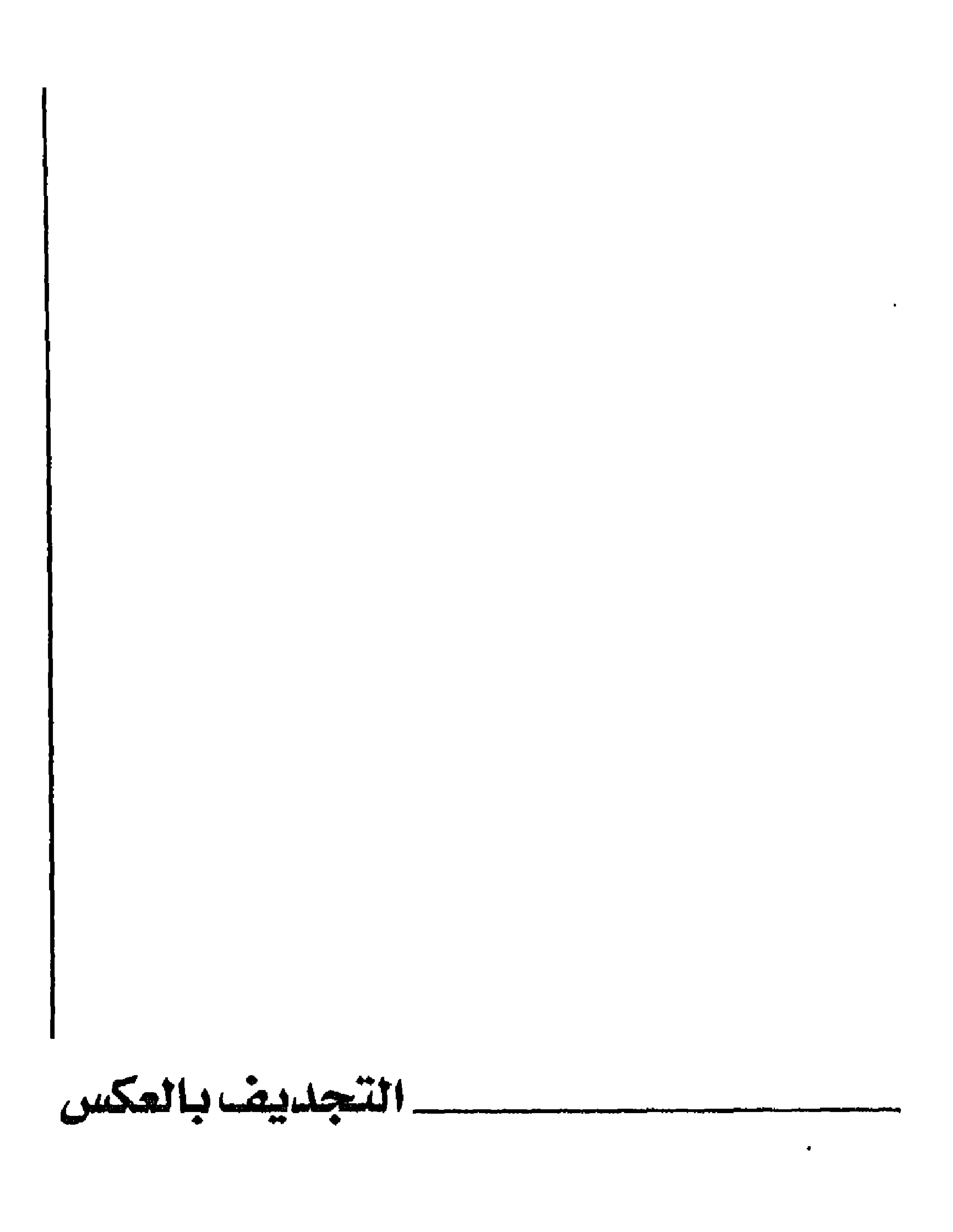
- ماذا لو مات القمر ؟

لمعت عينا أمى ورفت ابتسامة حانية على شفتيها قبل أن تنطق :

- سيولد قمر جديد ، يتابع سيرة من سبقه ، ويؤدى دوره . لا تخف يا بنى .. لن يموت النور أبداً .. حتى لو اختنق لفترات .. فلن يموت أبداً ...

استعرت منها ابتسامتها الحانية ، وألصقتها بوجهى .. ثم اتجهت إلى فراشى .. وتلك الرائحة الرائعة لا تفارق روحى .

كان القمر قد استعاد تألقه ، وعاد إلى صدر السماء ..كى يضيأها .



(يا أيها الليل . علام صيرورة حزنك ؟ ولماذا تتشح دائما بالسواد ؟!)

شيعتنى زهرة اللوتس بابتسامة ذابلة . كانت الذكريات تضغطنى ، والأرض تأبى ابتلاعى .استقبلت أذنى ،التى لا تقل عنى حزنًا ، بعض الألحان الجنازية ، والترنيمات الفرعونية القديمة . ربما كان النهر جشعًا ؛ إذ أمر الفراعنة بإهدائه عروسًا كل عام..(رُبَّ عجوز يتصابى).. إلا أنه - النهر - دائمًا يقاسمنى أحزانى ، فأتحلل من نفسى حينما يحملنى فوق صفحته الرقراقة . ترقبت القوارب ، وفتشت بينها عن قارب بعينه ، يعرفنى وأعرفه . كان القارب قادمًا يحمل على ضلوعه ، المغموسة فى السنين ، عصفورين لازالت السكين تسرقهما. كانت لدىَّ رغبة شديدة فى التحدث إليهما وكشف ستر الغيب أمامهما .. لكننى أشفقت عليهما من ذلك ، فازدردت كلماتى الجافة التى وقفت كشوكة حادة فى حلقى .

أشار لى القارب محييًا ، فرفعت يدى بتثاقل ، وثمة ابتسامة ذابلة تحاول أن تجد لنفسها مكانا على شفتى الجافتين . لاحظ القارب حالتى ، وحسبت أنه علم - تقريبًا - ما حدث ؛ فقد كان وجهى قطعة من الهم ، ولم تكن هى معى .

مخر القارب عباب الماء الهادئ فى استكانة ، وكأنه يشاركنى حزنى الطافح من مسام جلدى إلى فضائى الخانق . كنت أهرب بنظرى كلما باغتنى القارب بنظرة متفحصة مشحونة بزحام الأسئلة الحيرى ، كان مرتبكًا لا يعرف من أين يبدأ ، لكنه حسم أمره ، وسأل :

- أين هى ؟
- هناك .

• أيــن ؟!

• هل سـمـعت بما حدث . اتفـاق "غـزة - أريحـا ، أولاً " لم يُرضِ الطرفـين ، أو بعـضهم . هدد الإسرائيليون حكومتهم باللجوء إلى العنف .. لا يريدون لحلمهم الكبير الضياع ، وكذلك هدد الفلسطينيون حكومتهم- أقصد منظمتهم - باغتيال رئيسها : خوفًا من ضياع حلمهم الكبير أيضًا ، لقد تخطى الصراع البشر ، فلم يعـد صـراعًـا بشـريًا ، وإنما أصـبح صـراعًـا بين حلمين كبيرين .. كارثة!

أنهيت كلامى ، فباغتنى القارب بصمته الصارخ . كان يعرف أنها محاولة منى للهروب من سؤاله ، وكنت أعرف أنه يعرف هذا . رغما عنى كنت أزفر بعض الهموم الساخنة ، الجاثمة على صدرى ، فتلسع ضلوع القارب الذى يرتبك فى مسيره على صفحة الماء الصافى . امتد الصمت الممل بطول النهر وعرضه . كانت الشمس البرتقالية تلملم أشلاءها المبعثرة فى الفضـاء ، وتلوح للنهـر مـودعـة حتى لقـاء جـديد .. بعـد أن لوح لهـا القارب ، نظر إلىَّ معـاتبًا ، ثم كرر سؤاله مرة أخرى :

• أين هى ؟

لذت بصوت المؤذن المغـرد الذى انساب فى أذنى كـانسـيـاب اللبن الدافئ فى فم الرضيع من ثدى أمه المنتفخ ، فشعرت بانتشاء لم أشعر به منذ أغضبنى النورس .

كانت البنت التى أحبها تجلس على عرش قلبى . حينما نريد التنزه ، كنا نسير بصحبة النيل وحينما نريد الاستراحة ، كنا نقصد إلى "كازينو التجديف" ... فنجلس إلى الطاولة التى ألفناها وألفتنا .

كانت الطاولة مهذبة ، بشوشة .. عاشت معنا كل أحلامنا البكر . كنا بشراً . لم نكن . بل كنا تجسيداً رائعًا لحلمين كبيرين ينفلتان – معًا – من المحدود إلى اللامحدود . كانت البنت التى أحبها تغافلنى ، وتضحك للنهر ، فيضحك لها بخبث . كنت أنهرها ، ثم أضحك لزهرة اللوتس البارزة على حائط الكازينو .. فتضحك لى الزهرة ضحكة موغلة فى السنين ، محملة بعبق الحلم الموشى ببوح الندى ، وكانت البنت لا تغضب ، ولا تنهرنى ، وإنما تكشف عن بسمتها المشبعة بالألق .

كونًا ، مزدحمًا بالتفاصيل المبهجة ، كانت بسمتها .. ونقطة ماء ، فى بحر لجى ، كنت أنا .

انتبهت إلى سؤال القارب الذى يبدو أنه كرره أكثر من مرة :

● أين هى ؟

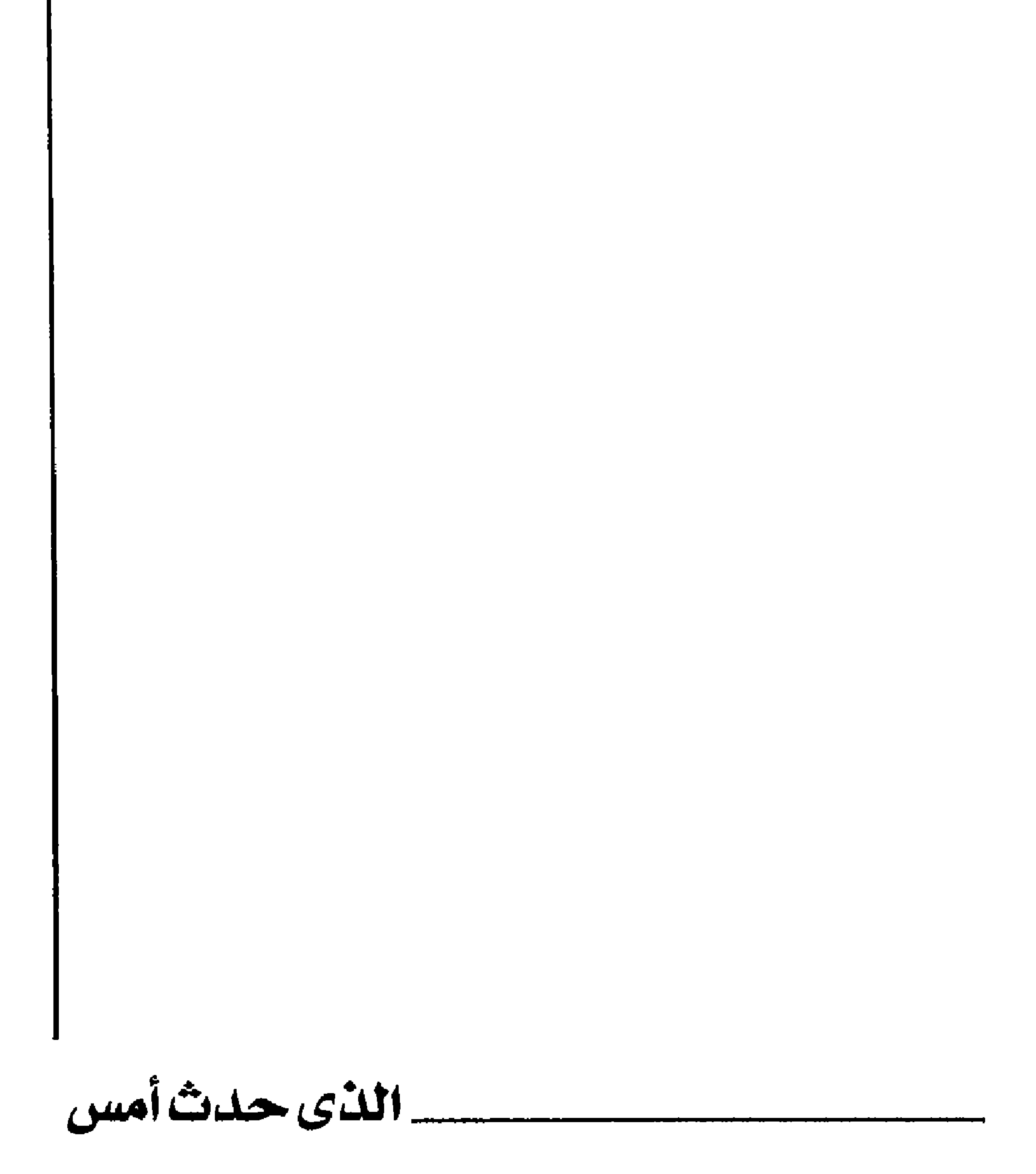
كانت الصور معكوسة ، شعرت أن النهر يسير فى عكس اتجاهه . سمقت من غابة رأسى ناطحة سحاب من الأفكار المتداعية بلا ترتيب .

كان الليل يفرض سطوته بعنجهية وجبروت .

(يا أيها الليل . لماذا أنت موحش هكذا ؟ هل ثمة مَنْ أوحشتك؟!)

غارقًا ، فى أحزانى ، كنت . جاءنى السؤال المكرر الذى يصر القارب على أن يسمع إجابته .. دون أن أنظر إليه ، قلت بأسى : " إنها هناك ، فى قصرها النرجسى بركن الذكريات فى تلافيف دماغى المرتبك " .

كان الليل قد فرض سطوته تمامًا على الدنيا .. بينما القمر العليل يتسلل إلى فضائى المشبع بالألم .



الذى حدث أمس

بمجرد أن وطأت قدماى أرض المحطة، شعرت بأن شيئًا قد تغير عن كل مرة .. كنت - كعادتى - مرهقًا من السفر .. تعجبت من تلك الوجوه الواجمة التى تمتلئ بها المحطة .. فبائع الكشرى لا ينادى كعادته على الجائعين ، وبائع العرقسوس لا يعزف سيمفونياته المعتادة لجذب الظامئين .. الجميع ليسوا كعادتهم . بخطى ثقيلة تكاد تلتصق بالأرض ، عبرت حتى وصلت إلى السيارة (السرفيس).. ألقيت بنفسى على أحد المقاعد . الجميع يحملون وجوهًا متجهمة عابسة .. قلت بصوت مرتفع :

- وحدوا الله ..

لم يحرك صوتى لهم ساكنا ، شعرت وكأننى أجلس بين تماثيل من الشمع . تجولت بنظرات مهتزة بين الجالسين فى السيارة . أيقنت أن شيئًا خطيراً قد حدث فى أثناء غيابى أمس .. نظرت إلى جارتى وسألتها:

- ماذا حدث ؟!

لم ترد .. تأففت وأشاحت بوجهها عنى . لم أيأس .. بل نظرت إلى هذا الذى يجلس خلفى وبادرته قائلاً :

- ماذا حدث ؟!

هو الآخر فعل ما فعلته جارتى .. بينما تشجع أحد الجالسين وسألنى :

- ألا تعرف ماذا حدث أمس ؟!

أجبته بتلقائية :

- لا .. فأنا لم أكن هنا .

بعدها تعالت ضحكاتهم التى امتدت حتى انتهت بالبكاء .. ثم سكتوا جميعًا .. لم تنطق إلا أعينهم التى صوبت أسلحتها على رأسي. ضقت بالأمر . طلبت من السائق أن يتوقف حتى أنزل.أوقف السيارة بعصبية .. أمسكت أعينهم بتلابيبى ، وألقتنى خارج السيارة ، طوقتنى الحيرة ، تساءلت :

- ما هذا الذى حدث أمس وأثر فى تصرفات الناس بهذه الطريقة ؟!

لما أرهق عقلى دونما أدنى وصول لما حدث .. شعرت بإرهاق السفر مضاعفًا .

السر

لم أستطع مواصلة السير .. بمجرد أن رأيت تلك الحديقة التى لم أجلس فيها قبل الآن .. أقسمت قدماى ألا تتحركان حتى تنالا قسطًا من الراحة .حديقة جميلة ، كنت أراها دائمًا من نافذة السيارة . مشغول أنا جداً بهذا الذى حدث أمس . لم أجد فى الحديقة غير رجل واحد .. منيت نفسى بمعرفة السر منه .. سأستدرجه حتى أعرف ما حدث .. اقتربت منه ، قلت متظاهراً بأننى أعرفه من قبل :

- كنت متأكداً أننى سأجدك هنا .

- ....

- أبحث عنك منذ الصباح الباكر ؛ لأعرف رأيك فيما حدث أمس .

- مازلت لا أصدق !

لم أعرف ماذا أقول ..لابد أن أعرف السر ، حاولت استدراجه قائلاً:

- أنا لم أصدق أيضًا عندما رأيت ما حدث .

قطب ما بين حاجبيه ، واشتعل وجهه بالغضب ، ثم قال بعصبية :

- أنت تكذب .. أنت لا تعرف ماذا حدث أمس .

قلت متردداً :

- نعم .. لا أعرف ما حدث ..لـ..كـ.. .

قبل أن أتم كلامى ، كان الرجل قد انطلق من أمامى . رأيته يجرى بسرعة غريبة حتى استحال إلى نقطة سوداء صغيرةٌ ، ابتلعها شارع جانبى .شعرت بالضيق يلسع وجهى ، سرت واجمًا لا ألوى على شىء ، يكاد رأسى ينفجر من قسوة التفكير .

حيرة

مازال الطريق طويلاً ، ومازلت مشغولاً بالذى حدث .حاولت التكهن فلم أستطع ، الغريب فى الأمر هو تأثر الناس بهذه الطريقة ، وتطيرهم من هذا الذى حدث أمس .

تذكرت يوم النكسة ...يومها كنت ضمن المنكوسين ..كانت القنابل تزحف وراءنا .. تتعقبنا وكأنها هى العدو . مازالت رائحة الجلد المشوى تسكن أنفى ..بل مازالت أشلاء زملائى تتناثر من حولى . كل هذا لم يؤثر فى الناس مثل هذا التأثير الذى أراه . صحيح أنهم حزنوا ، وانسابت الدموع من أعينهم دونما استئذان .. إلا أنهم لم يجعلوا الذى حدث محرمًا على أحد التحدث عنه ، كما يحدث الآن .

بل ويوم عبرت مع زملائى القنال ، ولقّنّا الإسرائيليين درسا لن ينسوه ، خرج الناس إلى الشوارع فرحين أيما فرحة .. أذكر ذلك المهرجان الذى أقاموه لى عندما كنت عائدا إلى أهلى ؛ لمجرد أنهم لمحوا زيى الحربى .. بل والاحتفالات الرائعة التى قوبلت بها فى بلدى ، كانوا بعدها لا ينادوننى إلا بالبطل ، رغم كل هذا ، لم أر ما أراه اليوم .. فما هذا الذى حدث أمس ، ولا يريد أحد إخبارى به ؟!

ارتداد

توسطت الشمس صدر السماء ، ومضت بعقلى ، الذى أظلمته تلك الأحداث ، فكرة منطقية .. إذا كان ما حدث أمس شيئا خطيرا كهذا الذى أراه محفوراً على وجوه الناس ، فبلا أدنى شك سيكون الخبر الرئيس للصحف المسائية .

تجاهلت الإرهاق الذى يحوطنى من كل اتجاه ، انطلقت إلى بائع الصحف ، التقطت جريدة "المساء"وأسرعت إلى منزلى .. على غير العادة لم أجد زوجتى ولا الأولاد فى انتظارى .. تجاهلت هذا أيضًا ..

ألقيت حقيبة سفرى على السرير، ثم أمسكت الجريدة و..عشر مرات وأنا أقلبها ذات اليمين ، وذات الشمال . تأملتها صفحة، صفحة..كلمة ، كلمة ..بل كنت أفتش بين السطور لعلنى أجد ما يشفى غليلى .. لا شيء غير عادى .

سمعت صرير الباب . لابد أن زوجتى والأولاد حضروا .تهلل وجهى ؛ فهى لا شك عندها الخبر اليقين عن الذى حدث أمس .

بمجرد أن رأتنى زوجتى .. ألصقت ضحكة جامدة على وجهها ، كعادتها دائما عندما أعود من سفرياتى ، ثم ألقت فى وجهى كلمات الترحيب المملة. لم أهتم بكل هذا .. فقط نظرت إليها بتودد ، ثم سألتها :

- ماذا حدث أمس ؟

تجمدت ملامحها فجأة ، وألقت ابتسامتها المصطنعة على الأرض ، ثم صرفت الأولاد من الحجرة ، وأغلقت الباب بإحكام قبل أن تسألنى :

- ألا تعرف ؟

صرخت بغضب :

- لا أعرف .. لذلك أسألك ، ماذا حدث أمس ؟

تقهقرت إلى الخلف .. صرخت :

- لا تفعلى مثلهم وأخبرينى ماذا حدث ..

لم تهتم بصراخى .. بل أسرعت خارجة من الحجرة ، وأغلقت الباب

من الخارج . حاولت تحطيم الباب . لم أستطع . لكمتني إرهاق السفر لكمة قوية ألقتني على السرير .. فنمت .

مجنون

قمت فزعًا من النوم . أشعر بشيء يثقل رأسي . ذابت تفاصيل الحجرة في الصورة الضبابية التي التقطتها عيناي ، ثم لم تلبث أن اتضحت ، تبينت المكان .. اكتشفت أنها غرفة بمستشفى .. صرخت :

- ماذا حدث أمس ؟!

* *

الحق أقول ، أنني سعدت بمعاملة العاملين في المستشفى ، فقد أحضروا لي صحيفة لأشغل بها وقتي .. كانت الطبعة الثالثة من "المساء" .. ولأنني أعرف ما بها ، فقد لاحظت أن هناك خبراً جديداً في الصفحة الأولى .. قرأت : "تلقى مستشفى الأمراض النفسية والعصبية مريضًا جديداً اليوم ، أبلغت عنه زوجته - مشكورة - حيث أنه لا يعرف الذي حدث أمس "... صرخت :

- أخرجوني من هنا .. أنا لست مجنونًا ..

سمعت طرقًا شديداً على الباب .. أحسست به على رأسي .. أيقظت عيني . زالت تفاصيل المستشفى ، وحلت محلها تفاصيل غرفة نومي .تحسست سريري .. مازلت أشعر بالتعب والإرهاق .. تهاوى رأسي على الوسادة .. ونمت .

انتزعت صوتى من التلاشى ، صرخت :

- يجب أن يكون كاذبًا ..

لم يخرج الصوت من حدودى الداخلية ، لم تسمعه زوجتي ..لكنها لاحظت تبدل الألوان على وجهى ، همست متسائلة :

- أنت تعبان ؟

حاولت الإجابة . لم أستطع . التزمت الصمت .أعادت السؤال بطريقة أغضبتنى ..كظمت غيظى ولم أرد .كررت السؤال بإلحاح غبى .. مصرة هى على إغضابى ..قلت بعصبية :

- لا .

انسلت من السرير . تركت الغرفة بعد أن نظرت إليها شزرا وتأففت ، ذهبت إلى حجرة الضيوف ..صرخت:

- يجب أن يكون كاذبًا ..

لم يتخط الصوت حدود الحجرة ..لم تسمعه زوجتى .. اصطدمت بأذنى إحدى سيمفونياتها النشاز التى تطلقها كلما نامت ، شعرت باشتياق غريب للنوم .. رافقنى التثاؤب إلى السرير ، انغرست فى ذلك الفراغ الضيق بين البطانية والسرير، نمت وأنا أتمتم:

- يجب أن يكون كاذبًا

* * *

في مكان واسع ، مترامية أطرافه ، لا أثر فيه للعمار ، كنت وحيداً ..حتى ظهر بشكله المرعب ..عملاق ..نظرت إليه مشدوها .. نظر إليَّ غاضبا ..سرت رعدة قوية في جسدي . أحسست بشعري يتحول إلى إبر مغروسة بجمجمتي ..أرعدت في أذني أصوات اصطدام أسناني ببعضها . أرى قوتي تتناثر حولي على الأرض الغريبة التي أقف عليها ..حاولت أن ألملم أشلاء قوتي المتناثرة .. لم أجد القوة اللازمة لعمل ذلك . لعنت الرعب الذي شلني عن الحركة . سار العملاق ناحيتي ، أمسك بتلابيبي .. ضايقني صوت دقات قلبي المرتفع ..كل شيء في جسدي يصرخ فزعًا .

نظرت إلى العملاق باستعطاف . انطلق الشرر من عينيه المحشوتين بالغضب . شعرت بقيظ الرمضاء يغلف جسدي ..رفع العملاق يده الحرة إلى السماء ..تكورت حول نفسي في انتظار ضربته التي ستسحقني وتجعلني نسيًا منسيًا ..امتدت يده إلى السماء ،ابتعدت ..اصطدمت بنجمة ..هوت النجمة في اتجاهنا..أفلتت من بين شفتي الشهادة ، أيقنت أنها النهاية ، اقتربت النجمة منا ..سنهلك معًا ..مد يده الطويلة .. أمسك بالنجمة ،ثم ألقاها إلى السماء مرة أخرى ..عادت إلى مكانها .. بل أبعد قليلا ،أثناء ذلك كانت يده قد أفلتتني .

لم أفكر ، وانطلقت أجري بكل ما أتاني الله من قوة . لم يطاردني . اتسعت المسافة بيني وبينه ..شعرت بالأمان ..توقفت..نظرت خلفي فوجدت يده امتدت بطول المسافة التي تفصل بيننا ..صرخت :

- يجب أن يكون كاذبًا ..

هوت اليد على رأسي بقسوة .

* * *

أثناء تناولي الشاي بعد الإفطار ..أجهدت نفسي في محاولة لتفسير هذا الكابوس اللعين الذي طاردني ليلة أمس . نظرت إلى هذا الذي يجلس أمامي في المرآة:عينان مجهدتان .وجه شاحب ،مصبوغ باللون الأصفر الكركمي ،فم لا يلبث أن ينتهي من التثاؤب ،حتى يتثاءب مرة أخرى . كل هذا يدل على أنني لم أهنأ بالنوم ليلة أمس .. رغم ذلك ، لم تلحظ زوجتي شيئًا . اشتعل وجهي غيظًا حينما تذكرت هذا الأمر الذي ينغص عليّ حياتي ..صرخت بصوت مكتوم :

- يجب أن يكون كاذبًا..

* * *

ذهبت إلى المطبخ . أمسكت سكينا حادة ، دلفت إلى الحجرة التي تنام فيها زوجتي ..ثارت ثائرتي عندما وقعت عيناي على هذا الانتفاخ اللعين ..تأهبت لطعنها .فتحت عينيها ..رأت السكين في يدي ، شهقت شهقة قوية ..ماتت بعدها . شعرت بانتشاء غريب .خيراً فعلت أن ماتت بلا قتل .ألقيت السكين من يدي ..نظرت إلى ذلك الانتفاخ اللعين ..لاحظت أنه يتحرك . من بين فخذيها ، لفظت تكوينًا هلاميًا .. أصابني الذهول ..تشكل التكوين الهلامي إلى رجل أعرفه جيداً .. تبينت ملامحه ..إنه ذلك السباك الذي وجدته في المنزل في أحد الأيام عندما عدت من العمل ..مازال الذهول يكبلني .التقط الرجل الهلامي السكين من على الأرض وطعنني في قلبي ..صرخت .

اعتدلت في جلستي على المقعد وقد اعتراني الفزع ، وبلل وجهي العرق ..جاءت زوجتي تتحامل على نفسها ، تسير بحرص خشية أن تفقد هذا الانتفاخ اللعين ، تساءلت :

- ماذا حدث ؟!

قلت ورائحة النوم تمتطى صوتى :

- لا شيء .

نظرت إلى بتودد ، ثم قالت بإشفاق :

- لم تنم جيدا بالأمس ، لذلك اختطفك النوم قبل أن تشرب الشاى.

بحركات بطيئة ،مملة التقطت الشاى ..وذهبت لتعود به ساخنا.

* * *

أثارنى جداً هذا الذى رأيته فى أثناء نومى على المعقد .فكرت فى الأمر جيدا .اتخذت قرارى :سأقتلها .

استأنفت الحكم : سأنتظر حتى أتأكد أن الحمل حقيقى ،ووقتها سأقتلها .

* * *

كلما تخيلت نفسى وأنا أقتل زوجتى ،أصابنى الغثيان ..فألفظ كل ما فى أحشائى .أدعو الله أن يكون الحمل كاذبا ..و إلا من أين لها بهذا الطفل ؟

لا شك أنه هو .تذكرت يوم عدت من العمل منهكًا ..فتحت الباب،وجدتها تقوده إلى الخارج ..اعتراهما الاضطراب عندما دخلت - خاصة هو - لكنها كانت أقوى .. فقد طرحت الاضطراب أرضًا ، وقالت بصوت لا أثر للارتباك فيه :

- إنه السباك..كان يصلح "الدُّش".

وقتها لم أقف كثيرا أمام هذا الأمر ،رغم وسامة ،وتأنق الرجل الذى قالت إنه السباك ..

فثقتى فيها كانت لا حدود لها .

تذكرت الطبيب عندما قال لى بتأثر ملفق:

- للأسف .. التحاليل تؤكد أنك لا تستطيع الإنجاب .

سألته بحسرة :

- ألن أنجب أبداً ؟

قال وقد أضفى على صوته بعض الخشوع:

- ربنا قادر على كل شيء .

دعوت الله أن يكون الطبيب مخطئا.

* * *

جاءت زوجتى بالشاى الساخن .للحظات اختفى هذا الانتفاخ اللعين ..ابتسمت لها ..قالت بتعجب ، وقد غزت وجهها ابتسامة :

- الحمد لله ..لم أر ابتسامتك منذ فترة طويلة.

همست بارتياح :

- الحمل كاذب ؟

صرخت ، وقد استحالت الابتسامة على وجهها إلى غضبة كئيبة :

- حرام عليك ..كيف تقول هذا ؟!

تحسست بيدها هذا الانتفاخ اللعين .. رأيته واضحًا هذه المرة ..بل رأيته أكبر من كل المرات السابقة ..ظل يكبر ، ويكبر ..حتى كاد يبتلعنى . رأيت ابتسامة شامتة على وجهها .. صرختُ :

- يجب أن يكون الحمل كاذبا..

غريق

- ١ -

"١-٢-٣ إلا $\frac{١}{٤}$!!".

قالها وقهقه بصوت مرتفع ، في حين انطلقوا هم في السباق ، ثم لم يلبثوا أن تبينوا الخدعة التي وقعوا فيها ..فأداروا وجوههم إليه .. ثم أطلقوا العنان لسيقانهم تسابق الريح ..بينما جرى هو أمامهم في سباق من نوع خاص ..أضحى مطارداً منهم ..أخذ يغير اتجاهاته ، ويراوغهم ولم تنقطع قهقهاته ..بل تزداد تأججًا كلما مر من تحت إبط أحدهم عندما يكون على وشك الإمساك به ..وفي غمرة سعادته واستمتاعه باللعب مع أصحابه ، جاءه صوت أبيه الأجش :

– ولد يا محمود ..

– نظر إليه ..غارت الضحكة في وجهه .. بينما توقف الأطفال عن محاولة إمساكه . خرج رغما عنه من اللعب الممتع . سار خلف أبيه دون أن يلفظ بكلمة واحدة .

- ٢ -

في البيت كان يريد أن يبكي ..أن يسأل أباه عن سبب منعه عن اللعب كلما رآه يلعب ، بل كان يريد أن يتسلل دون أن يدري أبوه ويعود إلى اللعب مرة أخرى ..لكنه لم يفعل شيئًا من هذا .. اكتفى فحسب بحمل الهم على وجهه ..والنوم .

- ٣ -

استيقظ على جلبة وبكاء . كانت أمه تبكى بعد أن صفعها أبوه وسبها بأغلظ الكلمات ..غرس وجهه في الوسادة بعد أن جذب البطانية على رأسه ..تذكر يوم ضربه أبوه "بعزيزة"خيزرانته العتيقة ،ولم يكتف بذلك ..بل سب أمه منذ قليل ..

-ألم أقل لك لا تلعب مع هذه البنت يا ابن الـ.....

"ترمين"هي البنت التي قصدها أبوه .. ابنة جارهم المهندس حسين إسماعيل .. كانت الخلافات بين أبيه ، وجاره المهندس لا حدود لها .. كانت أحيانا تصل إلى الاشتباك بالأيدى .. لذلك حذره أبوه من اللعب معها ..شعر بدموعه تنساب ببطء على وجنتيه .. مسحها بكفه .. شعر بنار الكره تستعر بصدره..مازال صوت أمه يصله .. تجددت الدموع على وجنتيه .. ونام دون أن يمسحها.

- ٤ -

في الصباح .. جلس محمود ينتظر أصحابه ليلعب معهم .. كان شعره الأسود الكثيف غير مصفف وطرف عينه من ناحية أنفه يسكنه الرمص . كانت ملامح وجهه القمحي كأنها مصنوعة من الهم .غزت وجهه ابتسامة مصطنعة عندما حضر بعض أصحابه ، ثم أصبحت ضحكة من القلب عندما بدؤوا اللعب ..

بعد أن انتهوا من لعبهم ، قال "حمدان" هذا الولد الأسمر النحيف :

- هيا نذهب لنستحم فى الترعة..

قال محمود متردداً :

- أنا لا أعرف العوم .

- سنعلمك .

دائما كان يتمنى أن يتعلم العوم ..لكن خوفه من أبيه كان يمنعه ..الآن هو لا يخاف منه .. بل يكرهه .

ذهب مع أصحابه ، وبلا تردد تجرد من ملابسه.. قفز حمدان فى الماء ، وتبعه سائر أصحابه .. بينما وقف محمود مضطربا .تذكر أباه وهو يضربه بالخيزرانة .. سمع صراخ أمه ونحيبها .. تأججت نار الكره بصدره .. لعن أباه وكل أب مثله .. اغرورقت عيناه بالدموع ، وانسابت دمعة تشق طريقها على صدغه الممتلئ .. ثم قفز فى الماء .

- ٥ -

خرج الأطفال مسرعين من الترعة.. ينادون على محمود فلا يجيبهم .. انشغلوا عنه ، فلم يظهر على السطح بعد أن قفز فى الماء .. ارتدوا ملابسهم بسرعة ..أمسك أحدهم ملابس محمود ..نظروا إلى بعضهم البعض حائرين ،ثم أطلقوا سيقانهم تسابق الريح .

وَخَزُكان

اعتلى سور السطح بخيلاء ، نافشًا ريشه القشيب ، ووقف مشدودا كوتر العود يتأهب لإطلاق شدوه التواترى . حك أسفل ذقنه بخلبه ، مداعبًا نفسه المتألقة بوهج اعتزازه بقيمته ، واستشعاره توقير الجميع واعتدادهم به ..كعادته اتجه نحو مشرق الشمس وصاح بعذوبة :"كوك ككوكوكووو..." .

و...لم يبرح مكانه حتى رأى الشمس تفرك عينيها ، وتنفض عن وجهها المشرق وسن المساء .

* * *

ألقى "سيد"رأسه بين كفيه بعصبية بعد أن زفر بأسى . يشعر أن كبرياءه تلاشت .. داستها بقسوة لم يعهدها عليها . ندت عينه بدمعة سخينة . كانت صورتها لا تغادر رأسه . تبدو ملاكًا بجناحين من الورد والياسمين ، ثم تستحيل فجأة إلى غول دميمة ينثال لعابها ، لا يمنعها من التهامه سوى بريق الذهب الذى يعمى عينيها فلا تكاد ترى إلاه .

اتكأ على ذكريات بعيدة محاولاً النهوض والانسلاخ من عالم السعالى والعقارب . نظر إلى المرآة محاولاً رصد ما أضافته السنوات والهموم إلى مساحة وجهه .

– لماذا كنت تبحث عنه فى هذه السن الصغيرة ؟

انتفض على وخز السؤال المباغت . شعر بنصله الحاد يغزو نسيج أفكاره . كان صغيراً حقا وقتها.أحد عشر عامًا ، ويقود فريقًا من الأولاد ؛ للبحث عن الوهم الفرعونى العهيد . كانت جدته تقول إن أرض الآثار تُخرج ذهبا وقت هطول المطر الشديد . كانت أمه تقول إن من يحفر فى

"الكيْمَان" وقت صلاة الجمعة ، يجد ذهبًا عتيقًا .. وكان جده يحكى لرفَقائه عن منزل العمدة المهجور ، الذى يُخرج له ذهبًا كثيراً يمنعه من بيعه .. وعن "فتح الله" البقال الذى وجد تمثالاً فرعونيًا مبهراً ، فباعه وفتح الله عليه بثمنه ..و"عزوز" الذى ذهب إلى منطقة الآثار وقت سقوط المطر فوجد قطعا ذهبية جعلته من أعيان البلد . كان "سيد" يتنصت متخيلاً نفسه هناك ..أمام البريق الأصفر الأخاذ.

كان يجرب كل الطرق .. فعندما تمطر السماء . يذهب هو وأصحابه إلى أرض الآثار – رغم صعوبة ذلك – لكنه لم يجد ولو قرطًا من صفيح .. ووقت صلاة الجمعة تماما ، كان يأخذ فأسًا صغيرة .. يدسها فى طيات ملابسه ، ويذهب برفقته أصحابه إلى التلال ، ويبدأ الحفر ، فلا يجد إلا الجثث والدماء المتخثرة !

جاءه "سراج" ذات يوم بفكرة عبقرية سمعها من أمه ..أخبره أن فى أرض الآثار أعمدة فرعونية عند تحطيم البصل عليها ، مع ترديد بعض الكلمات غير المفهومة ، تنشق إلى نصفين ويظهر من قلبها ذهب كثير.. فدمعت عيونهما من رائحة البصل النفاذة دون أن ينشق الحجر ، كان – رغم ذلك – لاييأس ، ويواصل البحث عن طرق جديدة لاستخراج الذهب من أرض الجدود ..لكن يبدو أن "فتح الله" و"عزوز" وغيرهما كثير من أعيان البلد ، لم يتركوا فى بطن الأرض ما يمكن أن يذهب ومضه بالعقول .

* * *

– إلى متى ستظل هكذا يا سيد ...؟

- لا داعى يا سراج .

- الدنيا بها مليون فتاة أفضل من "سلوى".لا تجعل حياتك تتوقف عندها .

- هل تذكر عندما كنا نبحث عن الذهب أيام طفولتنا ؟ الآن فقط عرفت لماذا كنت أبحث عنه بهذا الإصرار .

تبادلا نظرة حائرة غير محددة الدلالة ، ثم انفصل كل منهما عن الآخر بذهنه المشوش .

كان "سراج"بائسًا حقًا . كان بحثه عن الذهب محاولة للتمرد على الوضع المتردى لأسرته .. ظل يحلم بهذه اللحظة حتى تخرج فى الجامعة .. لكنه أدرك أن السماء لن تمطر ذهبًا ، وأن الأرض أجدبتها الأحلام العقائم . بدأ يبحث عنه فى محلات الصاغة وليس فى قلب الأعمدة الفرعونية القديمة ..حتى التقى " وجدان" .. فجعلته يزداد إصرارا على تحقيق حلمه القديم فى اقتحام الحاجز الزجاجى الذى يحول بينه وبين لمس واحتواء الألق الأصفر الزاهى .

[.. وها أنت يا "سراج" تملك الوقت .. لكنك تشعر بالخواء ، لأنك كفرت بإرث الجدود وجحدت نعمتهم ..فهل أغناك زهوك وانتشاؤك ، بتحطيم الحاجز الزجاجى ، عن لذة الحلم القديم ؟ وهل "وجدان" لك حقًا ؟!] .

استعمر الوجوم وجهى سيد وسراج . حاول الوقت أن ينسلخ سريعًا لينهى هذه اللحظات الكئيبة .بدا الأفق من بعيد مغمض العينين .. بينما نتف من الصمت اللاسع تسرى فى أوصاله .

* * *

كعادته ، اعتلى السور المتصدع متوجسًا.. حاول أن يصيح لإيقاظها من غفوتها التى طالت .. لكن شيئًا لا يدرى كنهه حال دون ذلك .

* * *

وقف سيد أمام المدير محاولاً استثارة عطفه بشتى الطرق .. لكن محاولاته أتت بنتيجة عكسية .فكر فى كتابة شكاوى للجهات الأعلى مستجيراً من تعنت وظلم المدير ..عاد إلى مكتبته التى لم يدنُ منها منذ فترة طويلة .. استوقفه عنوان كتاب شديد الالتصاق بحالته:"شكاوى الفلاح الفصيح"..كان يعلم أن هذه القصة وقعت أحداثها فى بلدته عندما كانت عاصمة لمصر القديمة..فكر فى أن يغير فى الشكاوى ، ويرسلها إلى المسئولين ممنيًا نفسه بما حدث فى القصة الأصلية . دب النشاط فى أوصاله ، وانتشر الخدر فى أرجائه كلما تخيل نفسه وسط كوكبة من الصحفيين وهو يتأنق أمام كاميرات التليفزيون ، وكل العالم يقرأ قصته ويسمع صوته الرخيم عبر الشاشات الوامضة بعصبية .

" يا سيدى ، يا أعظم العظماء،

دعنى أجعل اسمك فى هذه الأرض

يتفق مع كل قانون عادل ...،

فتكون حاكمًا خلواً من الشر ، وشريفًا بعيداً عن الدنايا ..

ومهلكًا للكذب، ومشجعًا للعدل ،

ورجلاً يلبى نداء المستغيث .

إنى أتكلم، فهل لك أن تسمع ..؟!"

كم هو رائع حقًا.كيف لم ير هذه البلاغة والفصاحة من قبل . غاص أكثر فى كتاب الشكاوى ، محاولاً تطويعها للوقت الآنى .. كان مغيبًا تماما خلف وطأة الخدر المتسلطة عليه .. كلما مرت أمام عينى خياله صوره فى الصحف ، وعلى طوابع البريد العالمية .

"..يا أغنى الأغنياء ، أليس من الخطأ :

ميزان يميل ، وثقالة تنحرف ، ورجل مستقيم يصير معوجا ؟

تأمل!

إن ذلك الذى يجب عليه أن يحكم بمقتضى القانون ، يأمر بالسرقة..

فمن ذا الذى يكبح الباطل إذن ...؟!"

يا لروعتك يا "سيد".ها أنت الآن تصل إلى مستوى رفيع يشى بمكانة أكثر رفعة وثراء.

كم هى رائعة فكرة الشكاوى هذه ، فلابد للمسئولين أن يستجيبوا ، ويأمروا بإلقاء المدير الظالم فى الجب ، لتتولى أنت مكانه مكافأة لك على عبقريتك الفذة وفصاحتك غير العادية .

"...الخامل لا أمس له ، والأصم عن العدل لا رفيق له .

تأمل !

إنى أشكو إليك ، وأنت لا تسمع شكواى ...

فأين أذهب وأشكوك سوى ...؟! "

على صفحة وجهه المهترئة .. كانت الدموع بلون المداد الأسود ، وثمة نظرة كسيرة فى عينيه .. كان المكان كئيبًا ، شديد الضيق ، تجثم

عليه رائحة نتنة لا يدرى مصدرها ، وعلى الحائط المتآكل .. تساقطت أحلام صريعة ..

* * *

"يا ما أكلت زمان بط وفراخ .. وبيض بلدى "

أتاه صوتها شجيًا تغشاه رنة حسرة واضحة . حاول العودة بذهنه المرهق إلى هذا الزمان الدسم .

- أرجوك يا أمى ..لا داعى..

" إنت اللى تاعب نفسك من غير سبب."

ترددت العبارة فى نفسه كثيرا .ربما كانت صائبة ، ولكن ثمة شيء لا يقبل الجدال : إنه لم يجد ما يريحه ولم يرتح .حاول أن يلفظ بضع كلمات سددن حلقه ..حاول أن يستجدى أمه لتحكى له عن أيام البط والفراخ والبيض البلدى .. والتعب بسبب مقبول .. حاول .

"كان يا ما كان ....."

- كفى .. لا أسـ...

- "....ورجع الشاطر حسن مكسور الوجدان .. حاسس إنه اتضحك عليه ، إتخان .. واللى خانه دم قلبه .. وما عادش عارف هو بيحلم .. ولا حقيقى الجرح بإمضة ست الحسن ..."

لم يستطع إطلاق الصرخة الحبيسة .. حاول أن يتشجع ويطلب إنهاء الحدوتة .. أو يعترض بحجة أنها تخالف الحقيقة الخيالية ."ست الحسن" لم تخن" الشاطر حسن" ليس العيب فيها ..بل ...

- كفى ......

"... توته توته .فرغت الحدوته.حلوه ولا ملتوتاااه ...؟!"

- حلوه .

" تبقى تستاهل غنوة ..!"

- سأغنى يا أمى .. نعم هذا هو الحل

أخيراً وجد الفرصة سانحة للصراخ ..شعر بانتشاء غريب وهو يرصد انزعاج المتطفلين ويسمع صدى صراخه يتردد فى آذان الأفق المكلوم .

* * *

كعادته ذهب ليعتلى سور السطح المتصدع .. لكنه لم يجد له أثرا . شعر بمرارة فى حلقه ..قرر أن يصيح دون حاجة إلى سور .. تأهب للنداء عليها ..فتش داخله عن صوته .. لكنه لم ...

* * *

- هل فكرت جيداً .

- فكرت !؟

- "وجدان"لم تخن .

- خانت !؟

- هل أنت جاد فيما تقول .

- ربما!؟

- ....

- ....!؟

شعرت أن روحى تنسكب منى على أرصفة الشوارع القاسية التى أسير فيها بلا هدف ، وكأننى أهرب من الحرج والمصير الغامض الذى ينتظرنى . لا أعرف كيف أتصرف . بدأت الأرض تدور بى ، وبين لحظة وأخرى كانت الشمس تغيب من سمائى فأرى الدنيا حالكة السواد .

أشعر أننى أسير على لحم بطنى ، فيصرخ وينتحب من قسوة الوطء ، وشدة الجوع . وجدت نفسى - فجأة - أقف أمام أحد تليفونات النيل الزرقاء ، والموجودة فى ميدان طلعت حرب على مقربة من الفندق المتواضع الذى أسكن فيه - فى شارع محمود بسيونى - كان تفكيرى قد هدانى أخيراً إلى الاتصال بخالد ، رغم سماجته ، ورغبته الدنيئة فى النيل منى ، إلا أننى لم أجد حلاً آخر . انتظرت - مرتبكة - أمام الهاتف حتى ينتهى شاب من مكالمته ..لم يكن معى كارت ولا نقود ففكرت فى أن أستخدم كارت هذا الشاب ، طبعًا لن يرفض عندما ينظر إلى عينى الجميلتين ، وقوامى الأنثوى ، ولن أنزعج من نظراته الوقحة ، المفضوحة ، التى تفوح بالاشتهاء ؛ لقد اعتدت هذه النظرات فلم تعد تعرينى أو تربكنى ، وطبعًا سيحاول مرافقتى بعد ذلك ، وسيعرض على مالا عندما يعرف قصتى .. لكننى سأصده بعنف - كعادتى - ولن أقبل منه شيئًا ..بل لن أتحدث معه أصلاً . خطفنى من أفكارى الشاب عندما نظر لى (لم تفح من نظرته رائحة الاشتهاء المقززة حتى الآن) وسألنى بصوت هامس إذا ما كنت أريد استخدام الهاتف فأومأت له بالإيجاب ، وضع السماعة بهدوء وعاد خطوة إلى الوراء ، فتقدمت وقلت له بخجل تناثر من صوتى : ممكن أستخدم كارت حضرتك ؟

- طبعًا ممكن .

كانت ابتسامة طيبة تسبق عبارته الناعمة ؛ فشعرت ببعض الارتياح له قبل أن أضع الكارت فى الهاتف . نظرت له وقلت بحيرة :

- سأتصل بـ(٠١٠) .

لم يعترض ولكنه لفت نظرى إلى أن الكارت به وحدات قليلة قد لا تفى بغرضى .طلبت الرقم فرد على خالد .

بيأس قلت له : يريدون الحساب فى الفندق ، وليس معى شيء .

- كم المبلغ ؟

- ٧٠ جنيهًا .

- سأحاول تدبيره وإحضاره لك .

- متى ؟

- الساعة السابعة .

كان بارداً فى ردوده . وضعت السماعة بعد أن أكدت عليه عدم التأخير ، ثم أخرجت الكارت وأعطيته للشاب معتذرة له عن تبديد وحدات كارته ، لكنه من خلال ابتسامته الحلوة قال :

- لا عليك .. سامحينى إذا سألتك :هل أنت من القاهرة ؟

ها هو يفعل ما توقعت ..يبدو أن كل الرجال متشابهون فى أساليبهم المفضوحة .. كنت أعرف أن هذا السؤال سيكون مربوطًا بأسئلة

أخرى لا تنتهي إلا بعد حصوله على فريسته ، التى هى أنا ، لكن الذى أدهشنى - وطمأننى قليلاً - أن نظرته لم تفح منها رائحة اشتهائى حتى الآن .. قلت له بعد لحظة ارتباك عبرتنى :

- لا .أنا من المنيا.

- فى أى مكان فى المنيا ؟

قلت بعد أن شعرت بمزيد من الارتياح له :

- من مغاغة .. لو كنت تعرفها !

قال وقد استحالت بسمته إلى ضحكة حلوة :

- طبعا أعرفها ؛ لأننى أيضا من المنيا.

* * *

كانت هذه بداية تعرفى على أشرف .. شاب وسيم ، متوسط الطول ، يميل إلى النحافة ، تسكن عينيه نظرة حزينة ، ويحمل صوته نبرة مريحة تجعله قريبًا إلى النفس ..أما ابتسامته الحلوة فهى كافية لأن تجعل عدوه يسلم له قياده شاعرا بالأمان .. سألنى عن اسمى وسبب وجودى فى القاهرة، تحدثت معه ببساطة أدهشتنى حتى أننى لم أشعر بالخجل منه وأنا أخبره بأننى لم أتناول أى طعام منذ ثلاثة أيام ، وليس معى سوى خمسة وأربعين قرشًا ، وأننى أعيش على الشاى والبيبسى ،كان يرد علىّ بمرح جميل ؛ ليخفف عنى .. بينما أقرأ فى عينيه الطيبتين عبارات مواساة ومؤازرة . قلت له إن اسمى :سامية وإننى حضرت إلى القاهرة لأعمل فى أثناء الإجازة الصيفية حتى أساعد والدى وإخوتى ،

وأحصل على مصاريف كليتى التى أدرس فيها . كنت أتحدث معه بصراحة وكأننى أتحدث إلى نفسى .. أخبرته عن ملابسى التى «اجريّتْ» وأرتديها رغم خجلى منها لأننى لا أملك غيرها ..أخبرته عن كل ما يؤرقنى ، وأنا لا أعرف سببًا منطقيًا لإخباره بهذا ..ربما نظرته الحنون ، أو طريقته المذهلة فى الكلام . ربما صوته الدافئ الذى يمس أوتار قلبى وروحى حتى أننى لم أخجل عندما أخبرته بعدم امتلاكى ملابس داخلية مناسبة ، وما يسببه لى هذا من حرج بين زميلاتى فى المدينة الجامعية .

قلت له إننى أقيم منذ أسبوعين فى فندق قريب أصبحت مدينة له بسبعين جنيها بعد أن نفدت نقودى ولم أجد عملاً . قلت له إن كل الذين أعرفهم فى القاهرة - وهم قليلون - تخلوا عنى .سألنى عن الذى حدثته فى الهاتف ، فقلت له إنه آخر أمل لى ، فاكتسى وجهه بجدية لم أعهدها عليه منذ التقينا ..لكنه نجح فى تبديدها بسرعة ثم قال بروحه المرحة :

- اسمعى ، بما أننا بلديات ، وبما أنك لم تأكلى منذ ثلاثة أيام فاسمحى لى أن أعزمك على عشاء دسم ، ولكن ليس الآن.

نظر إلى ساعته ،ثم أضاف :

- الساعة الآن السادسة وعشر دقائق ، وموعدك مع خالد هذا الساعة السابعة .. فلنلتق هنا الساعة الثامنة والنصف .. على الأقل لأطمئن عليك .

كنت أشعر بأشياء غريبة وهو يتحدث .كان صوته يهدهدنى ، يحملنى على صهوته الناعمة فأشعر براحة مذهلة بعد القلق والإرهاق ..

لكننى لا أزال خائفة منه رغم ذلك ؛ فكل الرجال الذين التقيت بهم كانوا يعاملوننى بهذه النعومة والرقة لينالوا منى ، وعندما أستعصى عليهم ، ولا أسلم نفسى لهم ، يظهرون على حقيقتهم : وجوه مفزعة ، وأرواح شائهة ، وقلوب مملوءة بالعفن والشهوة .

خالد مثلاً : متزوج ولديه زوجة جميلة ، وأولاد صغار ،ويمتلك مصنعًا وسيارة وموبايل .. لكنه رغم ذلك راودنى عن نفسى أكثر من مرة ، وعرض علىَّ كثيراً أن أترك الفندق وأذهب معه فى شقة يؤجرها لى خصيصًا ؛ لنعيش معًا لحظات من السعادة - كما يقول - وأخبرنى بأنه سيمنحنى النقود التى أريدها بعد ذلك دون أن أعمل وأتعب نفسى .

لكننى رفضت مؤكدة له أننى لن أبيع نفسى مهما كان الثمن ، وذكرته بأن له شقيقات ، وله زوجة .. فتأفف وتركنى بعد أن استحال وجهه الملفق إلى وجه ذئب دميم .. بعدها أهملنى تمامًا على أمل أن تضطرنى ظروفى إلى قبول عرضه .. وأنا الآن أضطر إلى اللجوء إليه .. فلماذا لا يكون أشرف هذا مثله ..صحيح أنه يبدو طيبًا وحنونًا .. لكن من يدرى .. فربما كان ذئبًا يختفى فى رداء حمل حتى ينال غرضه ، ثم يظهر على حقيقته بعد ذلك .رغم ارتيابى فقد كنت أنوى أن ألتقى به مرة أخرى ، على الأقل لأتناول الطعام الذى لم أقترب منه ثلاثة أيام ، كما أننى كنت أريد التعرف عليه أكثر .. وعن قرب .

* * *

تخطت عقارب الساعة الثامنة والنصف ولم أصل إلى مكان اللقاء ، كنت أجرى تقريبا لألحق به ، وأخيراً وصلت بعد تأخير عشر دقائق ، فوجدته واقفًا متململاً ينظر حوله بقلق الانتظار ، لم يرنى فاقتربت منه ووضعت يدى على كتفه مداعبة ، نظر إلىّ فتبدلت ملامحه القلقة وتحولت إلى ابتسامة مشفوعة بسلام وسؤال عن حالى ، ثم تحركنا معًا . سألنى إذا كنت أعرف الشوارع فقلت له إننى لا أعرف شيئًا . أخبرنى بأننا نسير فى شارع طلعت حرب متجهين إلى ميدان التحرير .

وقف فجأة ، فوقفت .أشار بإصبعه إلى مبنى ضخم وقال إنه مجمع التحرير . "هل شاهدت فيلم الإرهاب والكباب ؟" سألنى ، واندهش عندما أجبته بالنفى .صمت لحظة ثم سألنى :

- ماذا نأكل ؟

قلت ونظرى مازال مشبوكًا بالمبنى الضخم:

- أى شىء .

تردد قليلاً ، ثم قال وهو يتحرك :

- ندخل كنتاكى .

كان فى هذه اللحظة قد غيّر اتجاهه بالفعل وتحرك متجها إلى المطعم الذى اكتشفت أنه خلفنا مباشرة، فأمسكته من يده وجذبته نحوى وأنا أقول له محذرة :

- لا .. كنتاكى غال .

حاول التملص من يدى مؤكدا أن له سابقة فى هذا المكان ، وأنه يعرف ما هو مقدم عليه .حاولت كثيرا ورجوته فقال بإصرار:

- أنت لم تأكلى منذ ثلاثة أيام ، فهل تريدين بعد هذا أن أعزمك على فول وطعمية مثلا ؟

ثم جذبنى من يدى ، وجعلنى أتقدمه إلى الداخل .

كانت كل لحظة تمر علينا تجعلنى أقترب منه أكثر ، وأشعر بالارتياح له أكثر وأكثر. لم يكن كسائر الشباب . كان يمتاز بشىء خاص لم أستطع تحديده تمامًا .كان فارسًا نبيلاً من هؤلاء النبلاء الموجودين فى بطون الكتب ، أو على شاشات السينما فقط . حكيت له كل شىء عن نفسى أثناء تناولنا الطعام ، وتحدث معى ، قليلاً عن نفسه:هو شاب مكافح ، ترك بلده وحضر إلى القاهرة ليعمل ، واستقر فيها نهائيا منذ أربع سنوات ، ورغم الموبايل إلا أنه لم يكن ميسور الحال ..فهو يوم من الأثرياء ، وأيام من المعوزين ، كما أخبرنى .

بعد انتهائنا من العشاء ، فوجئت به يضع أمامى مئة جنيه قائلاً بحنان مذهل :ادفعى للفندق ماله واحتفظى بالباقى .

كنت قد أخبرته بأن خالد لم يعطنى سوى عشرين جنيهًا عندما قابلته ، ولكننى لم أستطع إخباره بأن هذا النذل راودنى عن نفسى مقابل مئة جنيه ، وعندما أهنته وعاتبته على محاولة استغلال موقفى الضعيف ، ثم ذكرته بزوجته وشقيقاته ، تأفف كعادته ،ثم أخرج عشرين جنيها وقال بقرف إن هذا هو المبلغ الذى يستطيع أن يساعدنى به . الآن أشرف يعرض

عليّ المبلغ نفسه دون أن يلمس يدى حتى . أى إنسان هذا ؟ بل أى ملاك ؟!
طفرت الدموع من عينى ،واختنق صوتى بالامتنان ولكننى أخبرته بأن يحتفظ بنقوده .سألنى عن الحل فقلت له بصوت مهشم إن الله سيرزقنى بالتأكيد ، فقال من خلال ابتسامته المريحة : لقد رزقك الله الآن ؛ فهو الذى أرسلنى لك فى الوقت المناسب قبل أن ترتكبى حماقة .

ثم وضع النقود فى يدى ، فأخذتها منه وأنا أشعر بروحى تجيش، وقلبى يهتف بحب هذا الملاك الوسيم .

* * *

نعم أحببته ، حتى قبل أن أعرف عنه أى شىء . شعرت أنه ملاكى الحارس ، أرسله الله لينقذنى من يأسى ، ويحفظنى من اندفاعى . كان قد صحبنى بعد العشاء إلى كورنيش النيل ، وأخذنا جولة نيلية فى قارب جميل . كنت أشعر بالأمان وأضحك من قلبى ربما لأول مرة منذ حضورى إلى القاهرة .. بدأت أغنى مع الكاسيت العالى ، وأحضن ماء النيل بيدى ، ثم أجذب يده وأغرقها . كان حنونا بشكل مذهل ، وكنت أكاد أصرح له بحبى رغم أننا لم نتعرف سوى من ساعتين فقط .. لكننى منعت نفسى ، فالرجل هو الذى يصارح المرأة بحبه وليس العكس .

شرد للحظة فسألته عن سبب شروده.. نظر فى عينى وقال :

- سبحان الله .. ماذا كنت ستفعلين لو لم ألتق بك ؟

هزنى السؤال الذى - لا أعرف لم - ذكّرنى بخالد .. عبرتنى صورته وهو ينظر إلىّ بعينين حمراوين ، ووجه ذئبى ، يسيل من فمه

لعاب نتن وهو يمزق ملابسى ليفترسنى ... لم ينقذنى منه سوى أشرف الذى طلب منى أن أصلى ركعتى شكر لله بمجرد عودتى للفندق وألا أبتعد عن الله أبدا ، قال إنه لا يصلى بانتظام لكنه يحتفظ بمساحة رائعة لله فى قلبه ، وظل يذكرنى بالصلاة حتى افترقنا بعد اتفاقنا على اللقاء فى اليوم التالى .

* * *

فى عصر اليوم الثالث - بعد تعرفى على أشرف - شعرت بإرهاق فنمت قليلاً . كنا قد اتفقنا على اللقاء فى التاسعة مساء ، ولكننى ، فوجئت به يدخل إلى حجرتى . كنت عارية تقريبًا بسبب الحر .. لكننى لم أشعر بالخجل منه ، ولم أسأله كيف دخل إلى حجرتى ؛ كل ما كان يهمنى فى هذه اللحظة أن أرتمى فى حضنه ، وأرشف من حنانه . نظرت فى عينيه هائمة ، ولم أقاوم نظرته العاشقة فارتميت بين ذراعيه ، وكدت أغيب عن الوعى عندما لامست شفتاى شفتيه ، كنت أشعر بطعم الشهد فى قبلته .. لكننى فجأة ابتعدت عنه وأنا أكاد أبكى ، وقلت له بانهيار :

- كيف تفعل بى هذا ؟

قلت له هذه العبارة الحمقاء رغم أننى التى قبلته . لم ينطق لكنه احتوانى بنظرته الرائقة مرة أخرى ، فارتميت فى حضنه وغبت معه فى قبلة ثانية ، ثم ثالثة . كان رائعًا وراقيًا فى كل شىء ، وكان جسدى يتوق إلى جسده بشكل أفزعنى ؛ فكلما اقتربت منه ازددت إليه شوقًا ، وازدادت

رغبتى فيه سطوة وجبروتًا .. وكان هو كذلك أيضا . كان يضمنى بعنف ، يكاد يعصرنى ، ولم أكن أشعر بالألم.. بل كنت أشعر باللذة .. كانت لذة مراوغة تجعلنى أضمه بعنف أيضًا ، وكأن روحينا تريدان الامتزاج فى روح واحدة ، كأن جسدينا يبغيان الاختلاط فى جسد واحد فلا نفترق بعد ذلك أبداً . لكننى فجأة استيقظت فوجدت نفسى على فراشى غارقة فى عرقى .. لم أصدق أن هذا كله كان حلمًا .. نظرت إلى الباب فوجدته مغلقا من الداخل .. قمت مفزوعة لأبحث عنه فى الحجرة . كنت لا أزال أشعر بلمسته طازجة على جسمى . هل قلت مفزوعة ؟ هذا ليس صحيحًا .. كنت محبطة ، أشتاق إلى قبلاته المذهلة .

* * *

مر عام تقريبًا دون أن أتحدث مع أشرف أو أراه . لم أكن أتخيل أننى أستطيع البعد عنه ؛ فقد ارتبطت روحانا وتمازج جسدانا حتى لو كان هذا قد حدث فى الحلم فقط .. المهم أنه حدث .الآن أراه مجرد ذكرى عبقرية لكنها مؤلمة .. ولا أعرف هل مازال يذكرنى أم لا .

بل أحيانًا أعتقد أنه لم يكن حقيقيًا ، وأنه كان واحداً من أحلامى الكثيرة ،وما يجعلنى أعتنق هذه الفكرة - أو أكاد - تكذيب كل زميلاتى لى كلما رويت لهم ما فعله معى .. فدائمًا يقلن إن هذا مستحيل الحدوث إلا فى الأحلام .. حتى سناء - أقرب صديقاتى إلىّ - عندما حكيت لها عنه نظرت لى غير مصدقة ، ثم قالت بهدوء :

- سامية .. حتى أنا تكذبين عليّ ؟! عمومًا المهم ألا تكونى خسرت أغلى شىء تملكه الفتاة !

أزعجنى كلامها فصرخت فيها :

- ماذا تقصدين ؟

- قالت بهدوئها المستفز :

- بهدوء يا سمسمة .. أنا سناء حبيبتك .. قولى لى الحقيقة ، وأقسم لك أننى لن أخبر أحداً بها .

- أنا أقول الحقيقة .

- كلامك عن أشرف هذا لا يمكن لأى عاقل أن يصدقه ..هذا النوع من الرجال ليس له وجود فى زمننا .

كانت تتكلم بيقين كاد يجعلنى أشك فى نفسى .. فقمت بسرعة من أمامها ، ثم عدت إليها ومعى مصحف وضعته على عينى وأقسمت لها بأننى لم أقل إلا الحقيقة ، فقالت إنها تصدقنى .. لكننى كنت متأكدة أنها لم تصدق شيئًا ، وإنما قالت هذا لتنهى الموقف .

رغم هذا الشك والارتباك ، فهو دائم الحضور معى ، بملامحه الوسيمة ، وروحه الحلوة ، وعفته ونبله اللذين لم أرهما فى أحد سواه .

أذكر آخر مرة التقيته ، كان اليأس قد تملك منى تمامًا فأخبرته هاتفيا بأننى سأسافر فى اليوم التالى ، واتفقنا على اللقاء ، لم أجد عملاً ، وأصبحت مطالبة بدفع ثلاثين جنيهًا للفندق ؛ لذلك قررت العودة إلى بيتى بعد أن انهارت مقاومتى .

في اليوم التالي التقينا . كان مضطربا وحزينا . سألني إن كان الرحيل هو قراري النهائي فأكدت له ذلك .

بصوت جاد يشوبه الحزن سألني :

- كم حساب الفندق ؟

ثم أعطاني ثلاثين جنيها بعد أن أخبرته ،وانتظرني حتى أحضرت متعلقاتي . أخذ مني الحقيبة وأشار لتاكسي .. قال للسائق بعد أن ركبنا :

- ميدان رمسيس لو سمحت .

ولم ينطق بكلمة واحدة بعد ذلك حتى وصلنا .

* * *

أمام محطة مصر وقف فجأة وطلب مني أن أبقى معه ، قال إنني أستطيع الإقامة في شقته مؤقتًا بينما ينتقل هو إلى شقة صديقه في المبنى نفسه .

لكنني كنت يائسة تمامًا فلم أحبذ الفكرة .. ولم أستطع منع نفسي من البكاء . بكيت لأنني فشلت في الحصول على عمل وعلى أموال ، ولأنني سأبتعد عنه ولن أستطيع مقابلته بعد ذلك .

أصر على ألا يتركني أسافر بمفردي ، وتراجع عن السفر في القطار مفضلاً الأتوبيس . كان يحمل حقيبتي بيد ، وبالأخرى يمسك يدي .

لا .. يمسك ليس هو التعبير المناسب .. بل كان يحتضن يدى بحنان وحب ، كان يُحمِّل لمسته كل شوقه لى ، ورغبته فى ، وكنت أفعل الشيء نفسه . لا أنسى تلك اللحظة التى تعثرت فيها وكدت أقع لولا أنه يمسكنى ، قبض على يدى بقوة لا تخلو من حنان ، ثم داعبنى بعدها ليبدد خجلى .

فى الأتوبيس حاول أن يخفى حزنه ويكون طبيعيًا عندما غامت عينى بالدموع ، وشكل الهم ملامح وجهى .. وقبل أن أصل إلى بلدى ، أخرج ثلاثين جنيهًا ووضعها فى يدى وهو يتصبب عرقًا ويعتذر بخجل نبيل .. باغتتنى الدموع بالفرار من عينى مرة أخرى ، فرجانى ألا أبكى ، وقال بروحه الحلوة :

- سامية ، أرجوك .. الركاب إذا لمحوك تبكين سيقولون إن هذا الذئب ، الذى هو أنا ، غرر بهذه البنت البريئة ، وطبعًا تعرفين الكثير عن شهامة الشعب المصرى فى مثل هذه المواقف .

بددت دعابته دموعى .. لكنها لم تفلح فى وقف نزيف الحزن الذى ينزُّ فى روحى من ألم فراقه .

نظر فى عينى وقال بجدية اكتسى بها صوته:

- لا أنصحك بتكرار هذه التجربة مرة أخرى ؛ فأنت لا تعرفين بمن تلتقين . هذه المرة حفظك الله ، فاحمديه وقبلى يدك شكراً على أنك عدت كما أنت .. فأنت لا تعرفين المكان الذى كنت فيه .. إنها القاهرة يا سامية يكفى أن أقول لك إن وجودك فى الجحيم أسهل ، وأأمن ،

من وجودك فيها . سألته عن السبب فقال : " إن الصائدين فى المياه العكرة أكثر من أن يتم حصرهم ، خاصة مع بنت جميلة ولديها من الأنوثة ما يغرى مثلك " .

كان رائعا حتى فى تحذيراته ، كنت ألتصق به ونحن فى الأتوبيس فيلتصق بى ثم يسألنى لماذا أبتعد عنه ؟!

شعرت بإحساسى نفسه الذى غمرنى عندما حلمت به .. لكن الأعين التى ترصدنا فى الأتوبيس كانت كفيلة بقتل رغبتى الملحة فى ضمه وتقبيله .

كان كل جزء فى جسمى يهتف بحبه ،ويرغب فى لمسه ، ورغم انشغال معظم الركاب بالفيديو - كان فيلم عادل إمام :" الواد محروس بتاع الوزير " - وضحكاتهم التى تعلو على فترات متقطعة .. إلا أننى كنت أشعر بعيونهم ترصدنا ،تطاردنا فلا نستطيع الاقتراب ، وإن كانت أيدينا نجحت فى اختلاس بعض اللمسات الدافئة . كانت يده تحتضن يدى فأشعر كأننى أذوب ، وعندما أتذكر أننى سأفارقه بعد قليل أرتجف ، وأنزع يدى من يده ، ثم أنظر من النافذة إلى الصحراء حتى لا يرى دموعى التى كنت أسمع لها أنينًا مؤلمًا .

الآن لا أكاد أذكره. لم أحتفظ منه سوى برقم الموبايل ، ورقم بيته الذى كتبه لى على ورقة من فئة القروش العشرة ..وعندما عرض علىَّ أن يعطينى صورته كما أعطيته صورتى ، رفضت ، وقلت له إننى لن أحتاج إليها لأنها مطبوعة فى عقلى .. كنت أقصد طبعًا فى قلبى لكننى لم أقلها .. الآن أبحث عن صورته فى عقلى وقلبى فلا أجدها .. ولا أستطيع الاتصال به ؛ لأننى لا أستطيع إخباره بما حدث .

* * *

بعد عودتى بأسبوعين تقريبًا تقدم لأبى عريس "لقطة" كما يقولون ، كان أبى يرفض فكرة زواجى خوفًا من المصاريف .. لكن العريس أخبره بتكفله بكل شيء ؛ لذلك لاقت الفكرة قبولاً وإصرارًا عند والدى ، ولم أستطع المقاومة كثيرا فانهرت فى النهاية .. لكننى لم أستطع إخبار أشرف بما حدث .. كنت قد سألته فى أثناء سفرنا عن رد فعله لو تقدم أحد لخطبتى . كنت أريد أن أنتزع منه اعترافًا بحبى قبل أن أتركه ، مجرد كلمة تربطنى به للأبد وتجعلنى له وحده .. لكنه راوغ وضن علىّ بها ؛ لذلك عندما تركته وتوجهت إلى منزلى ، كنت أشعر بتوتر غريب ، لم يكن توترى بسبب عودتى خائبة دون أن أعمل وأحقق ما كنت أصبو إليه ، ولم يكن شعورى بسبب بعض التعليقات السخيفة التى أتوقعها من أبى وأمى وإخوتى .. كان شعوراً مراوغًا بأننى لن أرى أشرف مرة أخرى ، أو أن كارثة فى انتظارى ستتمخض عنها الأيام القادمة .. وعندما تذكرته وهو يقبض على يدى بقوة وحنان عندما تعثرت ، شعرت برغبة قوية فى العودة إليه والارتماء فى حضنه ولو لمرة واحدة، تمنيت أن أعيش معه بأى شكل ، كانت الرغبة فى العودة إليه تضغطنى .. وفى لحظة متوترة تذكرت كل ما دار بيننا منذ التقينا لأول مرة فى ميدان طلعت حرب يوم السبت الخامس من أغسطس ، وحتى يوم عودتى، السبت التالى له .. مر أمام عينى الذاهلتين كل ما حدث بيننا خلال هذه المدة القصيرة / الطويلة .

- سامية رجعت !

فجأة انتشلني صوت أخي الأصغر من شرودي . تنهدت بعمق ، وبصقت رغبتي المحمومة في بالعودة إلى أشرف على الأرض . تبددت كل الصور من ذهني وكأن صوت أخي الحاد قد ثقب ذاكرتي الكليلة فانسكبت منها كل الذكريات الطازجة ، واحتلت مكانها صورة أمي ، وتجسدت أمامي مأساتي المتجددة ، وإحباطي الدائم . كنت أشعر أنني أخرج لتوي من حلم مبهر لأعود إلى كابوس الواقع الصلد ..من عمق بيتنا لمحت أمي بقامتها القصيرة تهرول ..ألصقت ابتسامة ملفقة على وجهي ، وبنظرة كسيرة عبرت باب بيتنا.

..

تحول ..

- شعرة بيضاء !

يقولها صاحبك ، فتهتز من الداخل بينما تتظاهر بالتماسك أمامه . تقول له بنبرة مغلفة بالمرح المصطنع :

- انزعها ابنة الكلب !

تخضع له تمامًا وهو يحاول نزعها فيفشل ، يكرر محاولته حتى يأتيك بها بعد أن ينزع ربع شعر رأسك الأسود الفاحم الثقيل .رغم تظاهرك بالمرح وعدم الاهتمام ، إلا أن شيئًا من هذا لا يستطيع محو المرارة التى تغشاك ، والوجيب الذى يجتاح قلبك .

كم من العمر مر ، وأنت سادر فى الأحلام تترى على ذهنك المشوش ، فيصرعها الواقع القاسى ، الذى يقبض على جيدك ولا يتركك إلا وقد مصّ دماءك ، ودلّى لسانك ككلبٍ ظامئٍ خمصان ؟

هذه الشعرة البيضاء التى تغزو رأسك تفقدك اتزانك ، وتجعلك ريشة جافة العروق فى وجه ريح عاتية ، يسخرها عليك الوقت فتهوى فى مكان سحيق شديد القذارة .

والآن .. وأنت جالس أمام المرآة تصفف شعرك . باغتتك فى مقدمة رأسك شامتة ، تخرج لك لسانها الباهت ، باعثة فى قاع نفسك الحزنى دقاتٍ لا تلبث أن تستحيل إلى صرخات واخزة مؤلمة . فرقت شعرك ، وحاولت النيل منها .. لكنها راغت منك .

" أوَصَلَ الزحفُ إلى المقدمة ؟! "

لم تكن تدرك لكلامك وارتباكك معنى محدداً .. فما الذى يرهبك من ظهور الشعر الأبيض ؟ أليس هذا شيئًا عاديًا قد يُضفى عليك قدراً من الوقار والاحترام ؟

تقبض عليها أخيرا . ملمسها له طعم الوخز بين سبابتك وإبهامك . تحاول نزعها بغلٍّ . تشعر أن شيئا قارسا يموج بين أصابعك المرتعشة ، تنظر إلى يدك بترقب فلا تجد فيها سوى شعيرات سوداء ، ولا أثر لغريمتك التى تعاود الظهور شامتة منك .

ترتمى بين أحضان ذكريات لها ملمس الحرير . تتذكر قول أختك "ماجدة " عندما كانت تصف لزوجها بإعجاب شديد جمال شعرك ونعومته عندما كنت صغيراً ، ثم تتحسر لأنها لم تصورك وأنت بهذه الهيئة الجميلة " كان شعره ناعم زى الحرير ، وكان نازل على جبينه وشكله حلو خالص عشان كدا كانوا فى الفيوم مسمينه القط .. لأن شعره ناعم زى القطط ".

الآن أنت مهوش الشعر ، مشوش الخاطر ، تغزوك صورة"مريم" .

كان لطعم يدها عندما تمررها على شعرك المصفف لذة فائقة ، تكاد تشعر بإصبعها وقد استحالت إلى شفاه مرتعشة تمسح رأسك تقبيلاً ، وتحملك على وسادة من الحرير إلى وادٍ مزركشٍ بالأحلام والمنى .

تنزعك الشعرة اللعينة من ذكرياتك الحالمة . باغتك الزحف الأبيض . سُرقت ولن يفيدك شيئاً البكاء على العمر المسكوب ."مريم" تزوجت وأنجبت طفلاً جميلاً ، وأنت لا تزال تدور فى ساقيتك معصوب العينين .

أربعون عامًا مرت دون أن تدرى وكأنك كنت مُغيبًا عن الدنيا ، تجرعت كأس الوهم فدار رأسك ، وفقدت اتزانك ، ثم اكتشفت فى النهاية أنك تسير طول عمرك فى خط دائرى . لا نهاية لمعاناتك ولا لشقائك .

تشعر أن العيون كلها مصوبة على الشعرة البيضاء . ترتبك كلما عبرتك نظرة مباغتة ، فتدفع يدك إليها محاولا مداراتها ، متظاهراً بتهذيب شعرك .

" كيف لم أتزوج حتى الآن ؟!"

يصفعك السؤال بقسوة . تترى على ذهنك المرتبك صورهن : أمل ، إيمان ، يمنى ، نرمين ، شيماء ، عبير .....

" أين ذهبت هذه الأيام ؟ وأين هؤلاء الآن ؟!"

تتعلل بأسباب تافهة لتنصرف مبكراً من عملك متحملاً كلام مديرك الذى يسخر منك . لا ترد عليه سخريته ، ولا تنفعل كعادتك أو تثور لكرامتك .. تكتفى فحسب برش الكآبة على وجهك المنقبض ، وتُهرق نظرتك الكسيرة على أرضية المكتب فيفهم أنك فى مأزق حقيقى . يحاول أن يعرفه ، ولما يتأكد من أنك أوصدت قلبك على سرك ، يسمح لك بالانصراف صارخا بأنها آخر مرة تستأذن فيها حتى لو كنت ميتا .

يلفظك مبنى عملك المتجهم إلى الشارع . تحاول الذوبان فى الأماكن المزدحمة ؛ لتهرب من النظرات القانصة . تشعر أن كل الذين يسيرون فى الشارع المزدحم توقفوا فجأة ، وصوبوا أعينهم ناحية رأسك بينما ضحكاتهم الساخرة تصم أذنيك . تتعملق الشعرة البيضاء ، تملأ

رأسك كله ، وتبدأ في الزحف على عينيك . لا ترى شيئًا . وزنها يتضاعف . يضغطك في الأرض وأنت لا تستطيع المقاومة .. تنحنى تحت وطأتها ، ثم تنبطح . ترقد في استكانة وخنوع . تحاول طلب النجدة فلا تستطيع . تخرج صرخاتك أنات مكتومة .. بينما الضحكات الساخرة تصب رصاصها الملتهب في أذنيك المرتعشتين ...

كنت في حالي ، ثم أصبحت في مشكلة نفسجسمية بلا سبب مقنع .

كنت أسير والنيل صامتين بعد أن حييته ورد تحيتي . لم أجد لديَّ رغبة في التحدث إليه، ولم يشأ هو أن يبدأ .. لفت نظري تجمع الناس فوق الكوبري الذي يئن تحت أقدامهم ، أيقنت أن في النهر شيئًا ينتظرونه ، مسحت صفحة الماء بنظري الكليل فلم أجد شيئًا ..لكن صوتًا مبحوحًا سمعته يناديني قائلاً :

– أنا هنا خلف الحشائش ، انتظر وسوف تراني : فهؤلاء البلهاء هناك ينتظرون مروري ليمصمصوا شفاههم النمامة ،ثم ينصرف كل واحد منهم وكأن شيئًا لم يكن .. أعتقد أنك الآن تستطيع أن تراني.

كان المنظر مقززاً يثير الاستياء والشفقة ، فقد كانت جثة منتفخة ، منكفئة على وجهها في الماء ، ومن خلال ثوب مهترئ يكشف أكثر مما يستر ، ظهر الجلد المنتفخ وقد فقد لونه فاستحال إلى أبيض باهت ، تظهر من تحته عروق زرقاء مخضرة فأصبحت تشبه خريطة مجسمة للكرة الأرضية .

رغم عدم تهيؤى للكلام ،فقد اضطررت للتحدث مع الجثة حتى لا تعتقد أنني أتعالى عليها ، قلت مجيبًا سؤالها :

■ نعم ، رأيتك أيتها الجثة المسكينة .. لمن أنت ، ما حكايتك؟

– لا يهم . المهم أن يصدق حدسي ولا تكون مثل هؤلاء البلهاء . افعل شيئًا من أجلي .

■ ماذا أفعل ؟

- قل لهم أن ينتشلونى من الماء ، ثم يوارونى فى التراب . أريد أن أستريح ؛ فهذه النظرات التى تطاردنى فى كل مكان أذهب إليه تعذبنى .

■ سأفعل أيتها الجثة المسكينة ، أعدك بهذا .

* * *

هناك ، كنت أسير بمفردى . لأول مرة أطأ هذا المكان بقدمى . كان الطريق لا يعرفنى ، ولا الأشجار ولا البنايات التى تحوط بى من كل جانب . سمعت شجرتين تتحدثان ، قالت الأولى مشيرة نحوى :

■ من هذا ؟ هل مر هنا من قبل ؟

ردت الأخرى : لا .. يبدو أنه مرهق ، ليتنا نستطيع مساعدته .

ألقيت إليهما بالتحية ، فردتا علىَّ ، ثم صمتتا.

كلّت قدماى من السير . دخلت إحدى الحدائق وألقيت بنفسى على العشب الأخضر الرطب ، تألم العشب فاعتذرت .كانت شجرات الحديقة منتصبة بشموخ ، وكنت أنا ملقى بانكسار على العشب اليانع ، وكانت الجثة لازالت تمخر نهر أفكارى الحالكة ..ولم توار فى التراب .

* * *

عيونًا كابية ، كانت الأجساد المتزاحمة على الكوبرى لمشاهدة المنظر المقزز . جثة منتفخة ، منكفئة على وجهها ، تتقاذفها دوامات النهر المجنونة . تزاحمت التعليقات السمجة والتكهنات العبيطة .

- أكيد هذه الجثة لحُرْمة ؛ فالحرمة هى التى تنقلب على وجهها ..؟

- بل هى لرجل ، ألا ترى بقايا الجلباب الرجالى ..؟

- ترى ماذا حدث ؟

اغتاظت الجثة من هؤلاء الحمقى ، تعليقات ساذجة لأناس سذج . صرخت صرخة مدوية أسكتتهم جميعًا .. ثم بعثرتهم فى الفضاء مرعوبين .

* * *

■ عذرًا أيتها الجثة المسكينة .

- لماذا تعتذر ؟

■ لم أستطع فعل شىء ، لم يستجيبوا لى .

- إذن ؟

■ لن يواريك التراب . ستظلين هكذا فريسة للنظرات البلهاء ، ومصمصات الشفاه الدميمة .

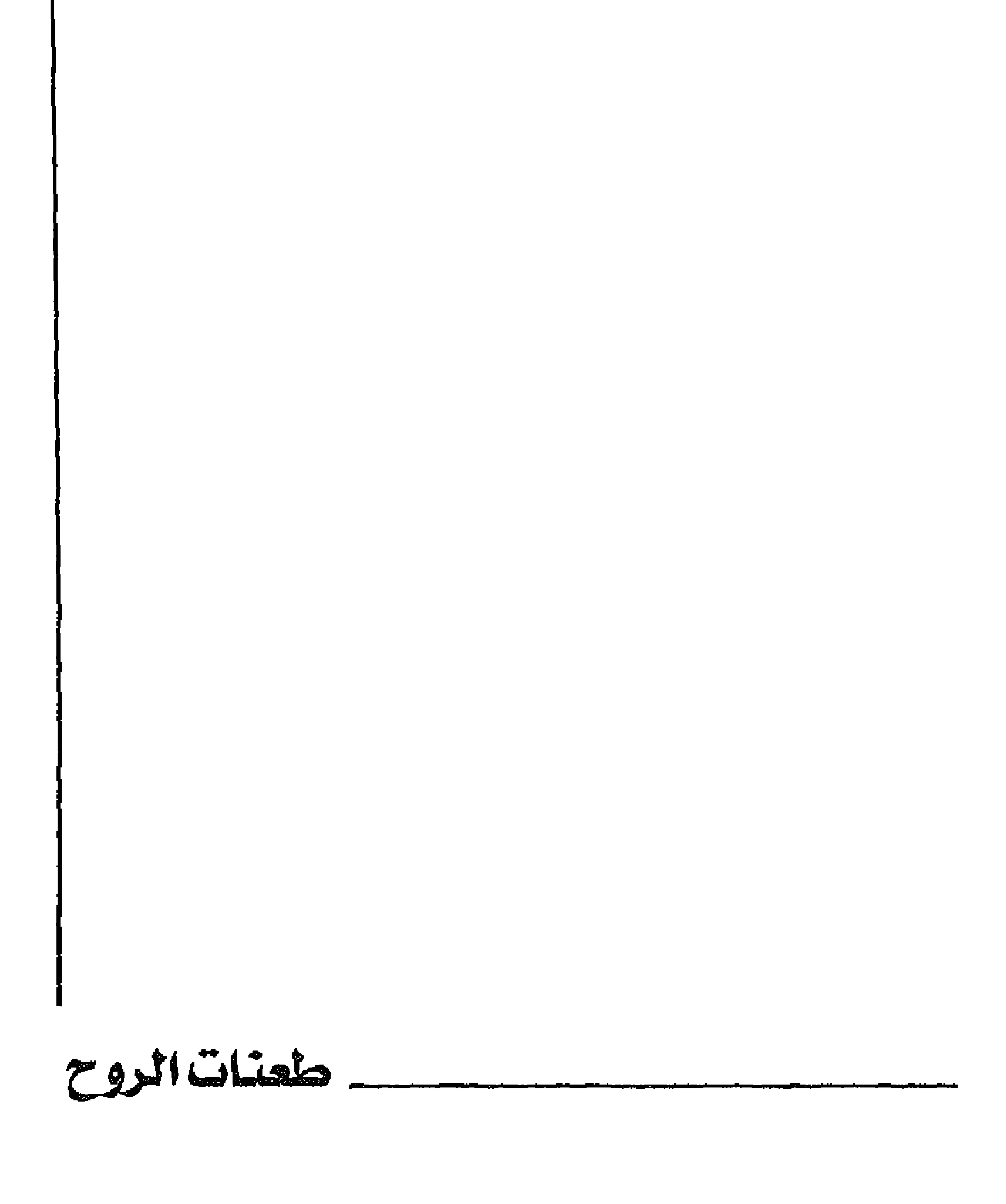
رمقتنى الجثة بنظرة حسيرة - هكذا شعرت - ولم تنطق بحرف آخر .. بل تركت نفسها لدوامات النهر.

(كان النهر ربًا نبيلاً ، كريمًا .. فوهب الأرض نفسه ، ولم تهبه الأرض إلا العفن والعطن ، والجثث المهترئة).

حاولت أن أعتذر مرة أخرى للجثة لكنها لم تعرنى التفاتًا ، ظلت فى طريقها لا تلوى على شىء .شعرت بدونية لم أشعر بها من قبل .

نظرت إلى النهر السائر بجوارى ، كان حزينًا تترقرق الدموع فى عيونه الموارة .

كان شعورى بالمرارة ينمو مع كل خطوة أخطوها . سمعت انفجاراً مدويا خلفى ، اعتقدت أن الجثة انفجرت من الغيظ .. لكننى سرعان ما أيقنت أن هناك شيئًا حدث أقسى من مجرد انفجار جثة ، فقد كانت الظلمة تباغت النهار .. نظرت إلى السماء فزعًا ..كانت سوداء كئيبة ، وثمة جثة تغطى وجه الشمس الباسر.



– ماتت ؟ هل ماتت حقًا ؟

تردد السؤال بقسوة فى رأسه الممتلئ بالضجيج . نظر إلى لا شىء . تجسد أمامه فجأة فم كبير مظلم ، لم يلبث أن ابتلعه ليجد نفسه بعد ذلك فى متاهة مفزعة . لا يعرف كيف تطور الأمر إلى مشاجرة سخيفة ، تطورت بدورها إلى عنف سافر جعله يدفعها بقوة ؛ لينطلق بعد ذلك شلال من الرعب الأحمر القانى . لازال ذاهلاً ، يشعر أن كل ما حدث ليس سوى كابوس مفزع . يدعو أن يكون كابوسا . لا يجرؤ على تصور نفسه كقاتل دنئ . لا يعرف يقينا ما حدث . كل ما يعرفه أنه رأى سيلا من الدماء الحمراء القانية يتدافع من رأسها الذى اصطدم بعنف بصنبور المياه . نظرتها المذهولة طعنته فى روحه . تسمر فى مكانه لحظات ثم جرى دون هدى . فر من جريمته حاملا عل عاتقه كل نذالة وقبح البشرية منذ بدء الخلق ، وحتى لحظة ارتكاب جريمته .

* * *

قاسية لحظات القلق . تمتص الدماء بلا رحمة ، وتعتصر القلب ببرود وغل نزقين . شعر أن دماءه تسيل من كل مكان فى جسمه ..تحول إلى كائن هلامى من دماء متخثرة كريهة الرائحة . كان يسير محوطًا بأجواء وأشكال غريبة .

لم يكن يفهم شيئا مما حدث ولكنه كان يدرك – إلى حد اليقين– أنه هالك لا محالة، لحظات ويتبدد كيانه الدموى الهلامى ، يتناثر فى

الفضاء الموحش الذى يتحرك فيه . إنه الآن يدخل نفقًا مظلمًا تتدافع منه أصوات مزعجة وروائح نتنة . شيء ما يشعر بالانقباض . لحظة مريبة تمر . يرى من بعيد طوفانًا أحمر ثائراً . إنها هى .. دماؤها التى سالت على صنبور المياه .. لكنها أصبحت أكثر ضراوة وعنفًا بعد أن نمت لها مخالب وأنياب حادة متحفزة للخمش والتمزيق، إنها الآن على بعد لحظات ، تقترب ،يجفل ، تقترب ،يرتعد ،تقترب ،يتناثر كيانه فى الفراغ المقبض ، يشعر بالتلاشى موجعًا ، تتناوشه المخالب والأنياب .

يحاول أن يصرخ . يزداد العذاب . فجأة تظهر عيناها . النظرة المذهولة ذاتها تطعنه فى روحه ؛ فيطلق صرخة هائلة ، بعدها يعود إلى طبيعته . يفتح عينيه بصعوبة ويجفف عرقه الذى انتشر بكل مكان فى جسده ، ويعود لسؤاله الذاهل :

- هل ماتت حقا ؟

* * *

الرعدة التى تسرى فى روحه فتحيله إلى قطعة من الجحيم ، كادت تختفى بعد أن مر من أمام المكتب الذى تعمل فيه ولم يلحظ شيئًا غير عادى .ارتاح لفكرة أنها لم تمت .. بل حتى لم تصب إصابة بالغة . شعر بارتياح لحظى .. لكنه ظل يحوم حول المكان .لاحظ عدم حضورها لفتح المكتب . طارده القلق لكنه أقنع نفسه بأنها حصلت على إجازة بسبب إصابتها فى رأسها . جمعت فكرته أشلاءه المبعثرة فى المكان .. لكن نظرتها المذهولة سرعان ما بعثرته من جديد.

* * *

لحظات ثقيلة مرت بعد أن طاردته بنظرتها المذهولة .

- هل ماتت حقًا ؟

لازال السؤال الواخز مغروسًا فى رأسه المرتبك ، كلما مر الوقت كلما ازداد السؤال وخزاً وسموقًا فى سمائه الخانقة . بصعوبة يسير تحت وطأة خوفه وقلقه . ابتاع صحيفة مسائية . كان يشعر أن كارثة ستخرج له من بين صفحاتها . صفعه "مانشيت" صفحة الحوادث .. بينما بعثرته صورتها التى نشرت بحجم كبير على الصفحة ذاتها : "مصرع فتاة فى ظروف غامضة". شعر بروحه تطير من حدوده .لم تحتمل قدماه الصدمة فهوى على الأرض المعشوشبة بجانب الرصيف . نظر إلى صورتها الجميلة . اغرورقت عيناه بدموع نادمة ، وأطلق صرخة مكتومة عندما طعنته بنظرتها المذهولة فى روحه المتشظية .

* * *

" فى حى المعادى بالقاهرة عُثر على فتاة حسناء غارقة فى دمائها .."

كان يلهث بين السطور حتى تأكد من الاسم وذهل من التفاصيل المذكورة فى الخبر ، نظر إلى الصورة بأسى ودموعه تكاد تخنقه . كان يحبها بجنون لكنهما اتفقا على أن يبقيا حبهما سراً. لم يكن يعلم بأمرهما أحد. كان يزورها فى المكتب الذى تعمل به فى وقت مبكر ، يقضى معها وقتًا قليلاً لكنه ممتع ، ثم ينصرف قبل أن يحضر أحد . ظل هكذا فترة حتى فاجأته فى زيارته الأخيرة برغبتها فى إنهاء العلاقة . لم يكن يتخيل أن

تطلب شيئًا كهذا . طلب منها إعادة التفكير فأصرت على موقفها . تركته ودخلت دورة المياه فذهب وراءها . كانت منحنية تنظف شيئًا فى "البانيو" فوقف خلفها وحاول احتضانها متوسلاً إليها لتستمر فى العلاقة . انتفضت مذعورة بمجرد أن لمسها ونهرته بقسوة . اشتعلت النيران فى عروقه وحاول أن يضمها عنوة . أبعدته بغضب . انطلقت يده غاضبة لتدفعها فى صدرها ، ارتدت للوراء على إثر الدفعة وارتطمت قدماها بسور البانيو .

اختل توازنها وسقطت فاصطدم رأسها بصنبور المياه وانفتح شلال من الدماء الحمراء القانية . تحول الكون كله إلى قطعة من الصمت القاتل . تلاشت كل الأصوات عدا صرختها المكتومة عند اصطدامها بالصنبور .. حتى انثيال الدم من مؤخرة رأسها كان له دوى هائل . كان منظرها بشعًا وهى مكومة فى البانيو غير قادرة على الحركة ولا الصراخ . نظرتها فحسب هى التى استغاثت فى البداية ، وعندما تأكدت من نذالته وجبنه تحولت إلى وخزات منتقمة ، وطعنات خانقة . شعر بذعر لم يشعر به من قبل . هرول خارجا من المكتب . هام على وجهه فى الشوارع حتى شعر بالتعب فذهب إلى بيته بروح لاهثة ، وقلب ذائب .

* * *

- ماتت .

كان الصوت ممزوجًا بالدموع يخرج من حدوده الداخلية بصعوبة . لا يصدق كل ما حدث . تابع الصحف ليعرف تطورات القضية . لاشىء

يشفى غليله . يكاد الرعب يقتلعه من حياته . يعرف أنه بعيد عن الشبهات ؛ فلا أحد يعرفه . حتى الذين يعرفونه شكلاً لا يعرفون اسمه أو أى شىء عنه ، بل ويعتقدون أنه أحد عملاء المكتب .. فقد كان حريصًا على أن يزورها على فترات متباعدة حتى لا تستقر صورته فى ذهن أحد . رغم ذلك يحوطه الرعب من كل اتجاه.

بعد أسبوع تقريبًا قرأ خبراً صغيراً فى إحدى الصحف بدد رعبه قليلاً .

انتهى التحقيق ، وقيدت القضية ضد مجهول.

هو وحده يعرف هذا المجهول .. يشعر بوضاعته مضاعفة . تشق صرخته ثوب الليل المفرود على النائمين . يشعر أن روحه تسحب منه بينما نظرتها المذهولة لا تتوقف عن الطعنات المؤلمة .

* * *

الهالة السوداء تحت عينيه ازدادت اتساعًا ، والذهول المرسوم على ملامحه المرهقة ازداد عمقًا . طعنات نظرتها المذهولة فى روحه حرمته النوم والراحة حتى كاد يُجن. حاول الانتحار لكنه فشل ليعود مرة أخرى لتبعثره وانزوائه . كلما أغمض عينيه وجد نفسه فى عوالم مفزعة . هو نفسه يكون مفزعًا ودميمًا ، يشعر بالتلاشى ، يتبعثر فى أجواء مراوغة ، حتى تظهر فجأة فتطعنه فى روحه المتشظية ، يصرخ بهلع .بعد أن يفتح عينيه ويتأكد أنه خارج إطار الكابوس ، تفاجئه بنظرتها المذهولة التى تطعنه طعنات مباغتة فيشتعل صراخه ، ويصبح غير قادر على التفرقة بين الواقع والكابوس .

تذبل روحه . يجف قلبه ، تتساقط أحلامه وطموحاته من حوله ويستحيل إلى هيكل متداع ..انهياره على نفسه حتمى لا يحتاج سوى بعض الوقت .

هل قتلها حقا ؟ هل ماتت ؟ ألا يحتمل أن تكون هى التى قتلته وهو الآن فى متاهة ما بعد الموت ؟

الأسئلة الهائمة تترى على دماغه المرتبك .. لكن الكوابيس تعود سريعا لتحمله إلى عذابه الديمومى مرة أخرى .قرر أن يتخلص من عذابه . لا يستطيع تحمل المزيد . استجمع أشلاء روحه المبعثرة فى أرجاء المكان . جرجر قدميه بصعوبة حتى وصل إلى هناك ."قسم شرطة المعادى ".اجتاح الرعب قلبه عندما وقع نظره على المبنى المتجهم . من سقف روحه تدلى حبل المشنقة . نظر إلى صورتها . كانت نظرتها – على غير العادة – حانية مواسية . قبّلها ثم طوى الصحيفة بوجل .رعدة شديدة سرت فى جسده عندما عاود النظر إلى المبنى المتجهم . تناوشته الأفكار المتضادة . رفضت قدماه التحرك . لكنه كان قد اتخذ قراره النهائى .

توق

مُسَيَّجٌ الآن أنت بها ،مُسَرْدَقٌ بعبقها المدهش ،ونظرتها التى تثير فى نفسك الحزنى رياح شبق مُتَبَجّح . لا تملك منها فكاكًا ، تلك البنت الغازيةُ . آن لها الآن أن تستعمرك وتتركك مسكوبًا على تخوم نظارتها الدقيقة التى تغزوك من خلف زجاجها اللامع المجرب .. فيرتج قلبك الكسير ، وتتحرك فى أرجاء نفسك الجائعة أعشاب رغبة قد نسيتها. تُلقى عليك - لاتزال - ترانيم عينيها السوداوين لترسم فى عينيك تفاصيل صلاة كنت قطعت الأمل فيها ، ووطَّنتَ نفسك على تأجيلها إلى حياة أخرى . هذه الموجات التى تحملها - ببراعة مدهشة - سهام عينيها تُلقيك فى واد مزدحم حتى الاختناق ، وتطوقك بالحيرة والارتباك .

- مساء الخير .

أخيراً تجاسرت ونطقت فى وجه سطوتها ، ولما لم ترد عليك ، وقفت كفارس متهورٍ ، وقلت لها بصوت مُتَحَدٌّ عاصراً فى فمك الحروف الحيرى :

- مساء الخير .

وعندما ردت عليك التحية باسمة ، تركتها مهيأة للدهشة ، وانصرفت لتجد مكانك شاغرا فى الصف الثالث كالعادة ، سحبت المقعد ليخرج على النظام ، ثم جلست مشرعًا رموشك لتصنع سداً من الوجد فى طريق نهرها المتدفق باللون العسلى الغامق ، والشوق اللافح .

كانت ترفل فى زهوها وهى تجلس على المنصة لتدير الندوة ، وأنت تجلس على تل من الأوهام الناهدة ، تهرب من نظرتها التى تعريك - أو هكذا

تشعر - إلى أحلام أكثر عريًا وانكسارا . تسرح فيها قليلاً ،ثم تنظر إليها فتجدها مثبتة نظرتها القاهرة على بؤبؤ قلبك النابت . تقفز من فوق الجبل الذى صنعته من تخيلاتك . تستمتع بالسقوط المراوغ ، وتشعر باللذة عندما تراها مبتسمة بانتشاء وقد أخرجت من قلبها الخبير إبرة برونزية وبدأت تحيك جناحين من الألق على أديم حلمك .. لكنك سرعان ما تشعر بالهلع عندما تنزعهما منك فجأة . يذوب قلبك فرقًا من السقوط المخاتل فى متاهة من الوجد المشتعل .. حتى يحتضنك - فى أفقك الضبابى - شىء دافئ رائع النعومة . تنهل من الدفء مستمتعًا بموسيقا قلبها الحنون ، وعندما تفتح عينيك تباغتك بقبلة مذهلة من شفتى عينيها ، تلقيك مرة أخرى فى بحرها العسلى الهائج .

- ليتك تفصحين عما تريدين أيتها المُدَرِّسَةُ الماكرة !

تنمو على رموشك الخجلى أعشاب رغبة قديمة كنت وأدتها فى قاع روحك ، وظللت مطارداً بذنبها المؤرق .تستغل فرصة انشغالها بالحديث إلى الحاضرين ، تبدأ فى مسح شعرها الملموم إلى الخلف بقسوة ، ثم تنظر بشجاعة إلى عينيها المشغولتين عنك ، تحملك رياح أفكارك الخبيثة إلى حيث تنتظرك وقد تهيأت لك بكلها ، تتخيل شعرها الناعم مفروداً على ظهرها فترى الليل يعانق النهار ، بينما تتجرد هى من حدتها القشرية ، وخشونتها الزائفة .

- هذه الأصابع المعدنة لا تروقنى .

تجثم فوق الصوت حتى لا تسمعك ..لكنه - الصوت - يظل نابتا فى أفكارك الشبقية ، تلك الخواتم المعدنية الكثيرة التى تغطى أصابع يديها

تصيبك بالبرد ، تنمو فى قلبك أشجار الصقيع ، وتعصف فى رأسك أحلام يتيمة ،متيمة بالتوق إلى شعر أسود كالفحم ، ناعم كالحلم ، وعيون مشتعلة رغم صقيع الخواتم المعدنية الباردة ،ونهدين جوادين تفصلهما واحة من الألق المدهش .

تجمع خيوط شجاعتك المقطوعة ، وتدخل عينيها بعينيك الذاهلتين .

البرد الشاعر بأصابعه تجوس فى جسدك النحيف ، يتوارى خلف التوق إلى رغبتك الصاهلة لترتع فى واحة ألقها المدهش .

ممتطيا لاتزال صهوة صوتها الواخز ، مرسومًا على نبضها اللاهث .

وشاردة لاتزال هى ، وقد أنساها الشرود فى عينيك عينيها . تلوك بآلية لذيذة أفكارها التى لا تعرف أنت شيئًا عنها . ربما تفكر فيك ، أو تحلم معك ، أو تعدك – دون أن تدرى – بقدر من العشق المنعش.

* * *

– أفق يا أحمد . العمر يمضى سريعًا .

يأتيك صوت صديقك محمولاً على نصل بارد يطعن أحلامك النابضة . تصرخ فيه متوسلاً أن يُبقى نصله بعيداً قليلاً ، فلا يبدو عليه أنه يسمعك .

– لابد أن تجد عملاً يُدر دخلاً حقيقيًا ..دعك من وهم الصحافة .

يلمس النصل حدود روحك الكسيرة . تختنق به دموعك التى تأبى الرحيل عنك ،لا ينقذك منه ومن صوته الواخز إلاَّها . تتلو ورد عينيها

تاركًا صديقك محوطًا باندهاشه . تفتح لك ذراعيها فترى نهرا من اللازورد يتدفق راقصًا بنعومة من قلبها إليك .

– ماذا لو امتزج نهران عبقريان في جو من العشق الأزلي ؟ تتجاهل أسراب الدهشة التي احتشدت في عيني صديقك ، وتردف برقة شفيفة : "لا شك سينتج نهر واحد ..خارق العبقرية ."

تحاكي صديقك في الدهشة عندما تظهر فجأة في فضاء عينيك بملامحها المحببة ، وقد امتلأ وجهها بابتسامة وضيئة .

* * *

لا تمانعي . اخلعي ، فحسب، هذا المعدن البارد عن أصابعك ورقبتك وأذنيك . لا تتركي على جسدك الناعم أي معدن من أي نوع . أفسحي الطريق لشمسك المتلظية توقًا للانفلات . دعيني أغرس في أرضك الخصبة شمسًا من الوجد تنير لك الوقت إذا الشمس غابت ، وترتق في عباءة العمر الفاتر ثقوبًا من الجليد والوحشة . سأهبك نهراً من العبق الدافئ ؛ لينسف برد قلبك الوحيد ، ويهبك قلبًا آخر أتعبته الوحدة وأحنته الانكسارات .. لكنه لايزال قادراً على العشق والتدله . لاتتمانعي . دعيني فحسب أوسد الدفء قاع عينك الشهي .

* * *

على سنام الوهم لازلت محمولا . قررت أخيرا أن تتحدث إليها . دخلت معركة سخيفة مع ترددك المقيت ، وعندما حسمت أمرك كانت –

بعد انتهاء الندوة - قد احتلت مقعداً في كافيتريا الأتيليه، بينما يجلس معها شخص آخر لم تكن صورته واضحة في عينيك . كان - فيما يبدو - واقعًا تحت سطوتها . أقبلت نحوها وعلي وجهك ابتسامة ناتئة ، سرعان ما سمقت بعنفوان عندما بادلتك بابتسامة مجاملة وتمتمت بكلمة ترحيب لم تفهمها ، ولكنها كانت كافية لتحسم ترددك المزعج . تحدثت إليها بكلام ساذج متجاهلاً هذا الذي يجلس معها . ثم أعطيتها نسخة من ديوانك الأول ، فأعطتك قدراً من التشظي .

* * *

- لو أستطيع فهمك ؟!

يقول جارك وهو جالس أمامك يُقلب ديوانك بانبهار طاغ ، وعندما تسأله عن السبب يتكلم كثيراً عن موهبتك الفائقة التنوّع ، ثم يُلقى فى وجهك سؤاله القارس :" كل هذا وتجلس فى البيت بلا عمل ؟!"

تخرج من قاع روحك صرخة حبيسة منذ أعوام ، لكن أحداً سواك لا يسمعها . تهمس بماء عينيك فى أذنيه الباردتين ، ولا تستطيع مداراة ارتعاشك من قسوة البرد ، بعد أن تهيج رياح نفسك ، ويزدحم فضاؤك الخانق بجيش الضباب .

- ابحث عن وظيفة . أتمنى أن تتزوج وأزورك فى بيتك قبل أن ... لازالت أمك ، بحنان مذهل ، تطعنك فى عين قلبك بنصال الحقيقة . تغرق فى قاع صوتها المغلف بالشجن والحسرة ، وتعدها بأن ذلك سيحدث قريبًا ، وأنت تعلم أنك كاذب ،وأن الحقيقة أكثر ألمًا وانتهاكًا مما تعتقد أمك المسكينة بك .

* * *

معركتك خاسرة لا شك .. فمن الواضح أنها ليست كما تخيلتها . تبدو وهى جالسة على المنصة تلوك علكها الصيرورى ، كما لو كانت زهرة برية لم تمتد إليها يد .. لكنك عندما اقتربت منها خذلتك صورتها . إنها امرأة برية ، تحمل على كل شعرة فى رأسها اسمًا ذكريًا بائداً ، تلوك الرجال - شعرت - كما تلوك علكها المُحَلّى بالسكر وطعم الفواكه المختلفة . للحظات بائسة تشعر أنك طفل برئ يحبو أمام امرأة طاغية الأنوثة .. لكنها فى عالم من النساء تعيش، ولا يوجد أثر لرجل سوى طفل صغير - أنت - يحمل فى عينيه نبوءة رجلٍ آت ، فهل تتركك حتى تتحقق النبوءة ،أم تدخلك فى فمها الأنثوى المّتأجج ؛ لتلوك رجولتك الطفولية كما تلوك علكها الشبقى ؟

رغم إحساسك لم تتراجع . تمضى بجسارة الغافل إلى حتفك فيها .

تغادرها فى المرة الثانية - كانت فى الأتيليه أيضًا - وأنت تحمل على شفتيك ابتسامة حائرة سرعان ما تستحيل إلى ضحكة قاهرة عندما تتخيلها بحراً هائمًا ، تصب فيه آلاف الأنهار الجسورة .

* * *

آن لك أن تنضو عنك ثياب الوهم ، وتحمل عصاك وترحل كما قال هذا الشيء الجالس فى "روزاليوسف" .

- مدرس ؟!

- وهل هناك حل آخر ؟

- لكن .

- ليس فيها "لكن" .أحضر أوراقك وتوكل على الله .

- و" الأهرام" ؟

- وهل يحمل الخنجر المغروس فى حلمك سوى بصمات " الأهرام " ؟

- مدرس ؟

- أفق يا صديقى .. فالضربة القادمة قاصمة .

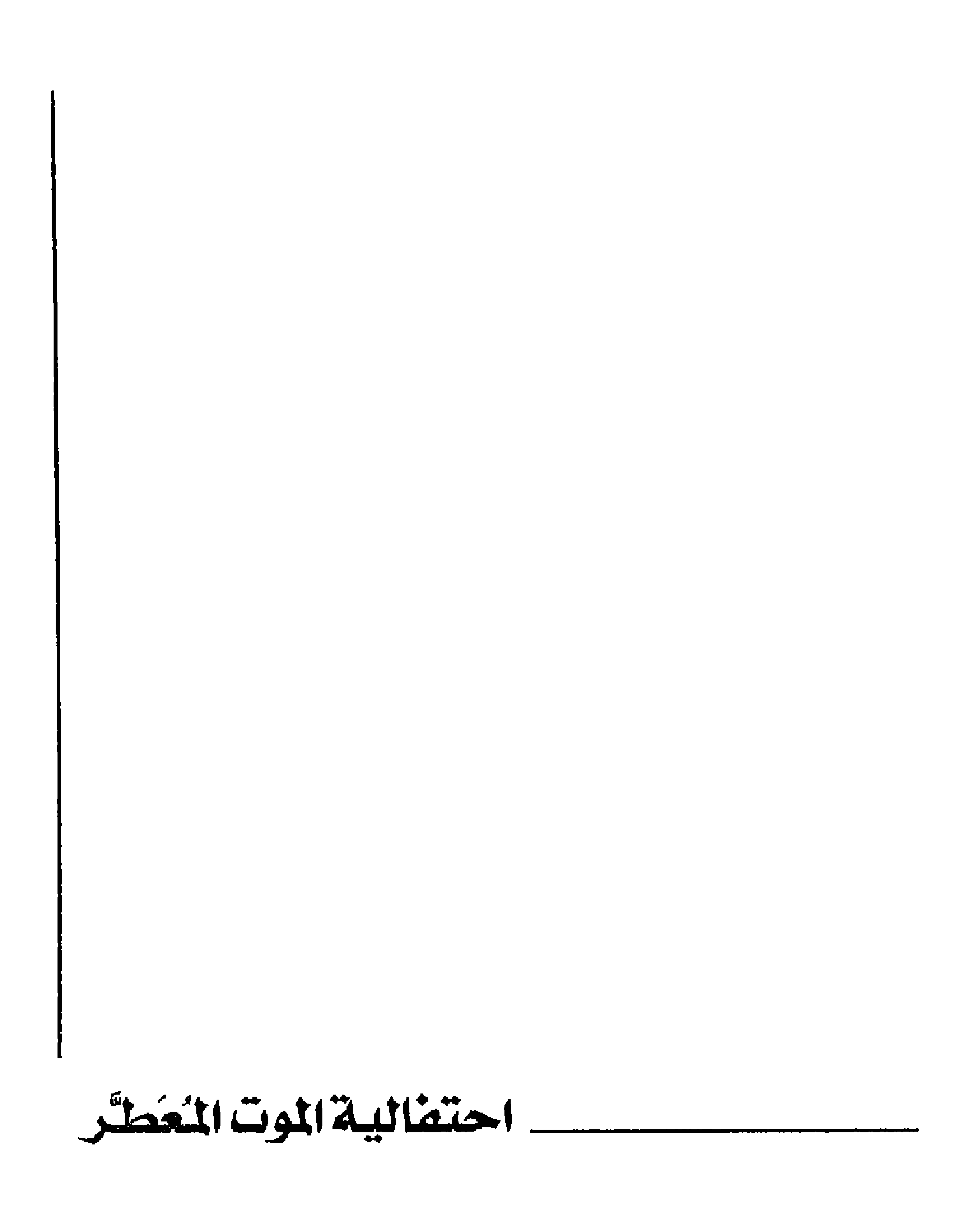
- مدرس .

- يبدو أنك لن تفهم أبداً .

* * *

أيها الوقت . يا أيها السيد النبيل . لقد اكتفيت منك بك ، فلا تضن علىّ بها . لا بديل - ربما - عن الرحيل ، فاجعلها آخر آية لى فى القاهرة . لقد أصابتنى الغيرة - أعترف - من الأنهار الكثيرة التى تصب فيها . أتوق إلى تلك اللحظة المذهلة ، عندما يلتقى ماء نهرى الفتى ، بماء بحرها الهائج بكل ما يحمل من أسرار ، وطواطم ، وتجارب ضاربة بجذورها فى أحلام وأوهام مدهشة .

ابسطها أمامى رقعة خضراء مراوغة تسلبنى براءتى وسذاجتى وتمنحنى حنكة وضلالاً .. أبذر فى صدرها المزروع بالورد والياسمين حلمى الناهد ، وأسكب فى يَمٍّ فمها العذب طموحى الذابل ، وأطير بعينى الحزينتين فى فضاء عينيها المتألق ؛ لأكسر بعد ذلك تلك العصا التى من المفترض أن أحملها وأرحل ، وأشعر أننى أخيراً .. بدأت أفهم .



لا شك أنها اقتربت جدا . فهذا الحشد من المدعوين ذوى الياقات البيضاء ، ورابطات العنق الزاهية ، وذوات الفساتين والتييرات المشعة بالشذا والاكسسوارات .. كل هذا يؤكد اقتراب موعد الحفل ، ويثير لدىَّ شعوراً غامضًا . أشعر بالخوف ، وبالاشتياق إليها.. لكن الذى يقلقنى أننى لا أدرى هل سألتقى بها هناك أم لا ؟ وهل ستذكرنى وتمنحنى ألق ابتسامتها كما كان عهدى بها قبل أن يفرق بيننا البائع الفظ؟

الضحكات الرتيبة المصطنعة تصم أذنى ، وترفع درجة حرارة واندفاع الذرات البللورية فى عروقى النافرة .أشعر بقرف شديد عندما ألمح طرفى المقص الفضى اللامع يلتقيان بشراسة ، عندما تقوم السكرتيرة الجميلة الأنوثة بتجربته قبل بدء العمل الشاق على نفسى . أنظر إلى أرجاء المكان المتألق نظرات زائغة وكأننى أودعه . أحاول - ربما أنسى - إلهاء نفسى بمتابعة بعض المدعوين .. خاصة المعروفين لى .

ألمحه ينظر بخبث إلى سكرتيرته الفاتنة . رفعت بك مدير الشركة التى أعلق فى مدخل بهوها . رجل قصير مكتنز ، جمع شحمًا و لحمًا أكثر مما جمع من المال الوفير الذى يملكه، وهو يحتفل اليوم بحصول شركته على كأس الإنتاج الذى يتوافق مع افتتاح الشركة مقرها الجديد بالمهندسين ، ومرور عشر سنوات على إنشائها ليصبح العيد ثلاثة،ويتسابق الجميع لإخراج الحفل فى أبهى صورة خاصة أن الوزير سيحضره ،وكذلك عدد من الشخصيات العامة والشهيرة . ورفعت بك رغم امتلاكه المال الكثير والحياة الرغدة لا يشعر بالسعادة ، بل ويعتقد

أنه لم يسعد أبداً فى حياته . سمعته ذات مرة يقول هذا لطبيبه الخاص . بعد أن أعطتنى له سكرتيرته ، فوضعنى فى حقيبته وذهب إلى طبيبه وكتل الهم تنتشر فى أخاديد وجهه المجهد ..حمّل تحيته ضيقه قائلاً:

- مساء الخير يا دكتور .

رد الطبيب ببشاشة :" أهلاً يا رفعت بك .. ماذا بك؟"

هوى بجسده الثقيل على أحد الفوتيهات قائلاً بانفعال :" حزين جداً يا دكتور . كثيرون يحسدوننى لكنهم لا يعرفون مأساتى .أشعر أننى لم أسعد أبداً فى حياتى ".

يومها أخذ الطبيب يهدئ من روعه محاولاً إقناعه بالعدول عن هذه الأفكار الحالكة التى تسيطر عليه وتمنعه من الاستمتاع بحياته ..حتى انفجر رفعت فجأة صائحًا فيه :" كفى يا دكتور . كلامك هذا أعرفه جيدًا وليس فيه جديد . إننى..إننى أعجز مع زوجتى.أشعر أننى لست رجلاً فألجأ لسكرتيرتى التى تمنحنى أهم ما أريد . الشعور برجولتى ."

وقتها جمد وجه الطبيب ولم ينطق، وبدت على مساحة وجهه إحساسات متضادة،بينما غزت شفتيه ابتسامة خجول . يبدو أن رفعت بك شعر بما ينتاب طبيبه..ففتح حقيبته وأخرجنى منها ،ثم همس وكأنه يعتذر :"ما رأيك؟"

بصوت مخدوش رد الطبيب :"جميلة.هل أحضرتها لحفل الافتتاح ؟".

- نعم.أحضرتها سحر على ذوقها ،فلم أستطع الرفض .

بدأ الوجوم يسقط عن وجه الطبيب الذى شرع فى تحليل حالة رفعت بك مرة أخرى بصوت مكتوم أخذت نبراته تتخلص تدريجا من الاختناقات التى تعتريها ،ثم انصرف رفعت بك ونسى أن يأخذنى معه . أغلق الطبيب حجرته على نفسه ،ولم يلحظ وجودى ،ثم أخذ يتحدث بصوتٍ عالٍ :" رفعت يشكو لى حاله .. وأنا ... "

اختنق صوته وبدت الدموع فى عينيه بينما طرقات مدللة أتته من الباب ، قال بصوت كسير : "من؟"

- أنا سلوى يا دكتور .

- ادخلى يا سلوى .

دخلت تتهادى بدلال وابتسامة فاتنة تَسِمُ شفتيها ، بينما أخفى البالطو الأبيض الناصع جسداً ثائراً يتوق للانفلات والتحرر. فجأة انقض الطبيب عليها ،التقطها بين ذراعيه وضغطها بشدة تألمت منها .احتواها تماما وغيب شفتيها بشفتيه ،ثم تركها بعصبية وارتمى على أحد الفوتيهات بطريقة أثارت تعجب سلوى ،فسألته :

- مالك يا حبيبى ؟

- تصورى يا سلوى ،رفعت كان عندى ليشكو لى زوجته التى تشعره بالعجز فيلجأ إلى سكرتيرته .لا يعرف أن طبيبه لا يستطيع مساعدته .

اتجهت إليه سلوى واحتوته هى هذه المرة بشدة ،ثم غلّقا أبواب العيادة ،وغابا معًا فى نشوتهما . هذا المنظر نفسه رأيته فى مكتب

رفعت بك الجديد ، عندما حضرت سحر سعيدة وطلبت منه أن يغلق عينيه ، ولما فتحهما كانت قد أخرجتنى من حقيبتها قائلة برقة مصطنعة : " ما رأيك يا حبيبى؟"

رد برتابة :" حلوة . لكن حفلا كحفلنا يتطلب لونا أكثر بهجة ."

قالت بحماس :" وهل هناك أكثر بهجة من الأزرق الزاهى ؟ ثم إنه يتفق ولون بذلتك الجديدة التى سترتديها فى الحفل ."

وأردفت بدلال : "ثم إنه اختيارى يا ريرى."

هكذا تدلله سحر ، ويبدو أن هذه هى كلمة السر التى تسيطر بها عليه .. فقد أسلم لها نفسه بعد ذلك ، واقتنع تماما بوجهة نظرها ،ثم سألها بخبث :

- هل يوجد أحد غيرنا هنا ؟

- لا .خالص .. والباب مقفول يا ريرى .

ثم انطلقت ضحكة اهتزت لها أعصاب رفعت ،فامتدت يده إلى أحد الأزرار ليخرج من حائط المكتب سرير فخم عليه "روب موف حريرى" التقطه رفعت بآلية ، بينما كانت سحر تنضو عنها ملابسها قطعة قطعة ، حتى لم يبق على جسدها سوى قميص شفاف لا يخفى شيئًا ، يقاوم ضغط نهدين منتصبين، وردفين كبيرين مكورين . ازداد رفعت تأججًا. ازدرد لعابه بعد أن التهم جسدها البض بنظرة جائعة وكأنه يراها لأول مرة . بصعوبة نقل جسده الثقيل ليحتويها .. لكنها راغت منه وارتمت على السرير فى وضع مثير ،ثم أشارت له بسبابتها :" ريرى . تعال."

ألقى رفعت بك وقاره خلف ظهره ، وتحول إلى طفل صغير لا هم له إلا اقتناص اللذة المرجوة مستعطفًا سكرتيرته:"سحورتى حبيبتى ..أرجوك ."

ثم اتجه إليها لتحتويه بذراعيها .أسلم لها قياده لتفعل به - ومعه- ما تشاء وهو سعيدٌ منتش ،ولم أعد أسمع سوى همهمات غير مفهومة تحولت بعد ذلك إلى تأوهات شبقة .

هى الآن فى كامل زينتها ، ترتدى وجهًا وقوراً محملاً بابتسامة لا تتغير ، تمنحها لكل الموجودين .كلما أمسكت المقص بيدها شعرتُ بنهايتى ، وازداد تدفق الخوف بعروقى . ها هى تتبختر فى فستانها المتألق الذى ابتاعه لها رفعت لتحضر به الحفل ، بينما تحدجها اعتدال هانم ، زوجة رفعت، بغيظ مكتوم، فهى تدرك أنه على علاقة آثمة بها . سمعتها تقول له هذا يوم نسينى عند الطبيب . فقد عاد ليأخذنى بعد أن تذكرنى فجأة ،دق الجرس فشعر بحركة مريبة داخل العيادة ، وعندما فتح له الطبيب لاحظ الإرهاق الذى يستعمر وجهه . قال له الطبيب إنه كان يتهيأ للنوم لأنه بمفرده فى العيادة ،بينما لمح رفعت سلوى وهى تتلصص من إحدى الحجرات الجانبية محاكية الطبيب إرهاقه وارتباكه . وقتها أطلق رفعت ضحكة مجلجلة .ضحك كثيراً .أخذنى وهو يضحك ،وأشار للطبيب مودعًا وهو يضحك، وقاد سيارته حتى وصل إلى بيته فلم يكد يرى زوجته حتى تجمدت الضحكة على شفتيه ، ثم تلاشت ،ولم يبدُ لها أثر .دخل حجرة النوم متظاهرا بالإعياء ، وضعنى على الكومدينو بلا مبالاة . دخلت اعتدال خلفه مستفسرة عن سبب غيابه مؤكدة قلقها عليه ،

أشاح بوجهه عنها .اقتربت منه محاولة ملاطفته لكنه لم يستجب.التصقت به مستفسرة ،بصوت خنقته الرغبة ،عما يقلقه ..لكنه ابتعد عنها ولم يرد .انفجرت فيه غاضبة:" طبعًا كنت مع الهانم . " تساءل متغابيًا:" هانم من ؟" قالت بحدة :

- ألا تعرف من؟ هذه البنت المائعة التى تهجرنى من أجل عيونها.

قال ببرود :" لا داعى لاختلاق المشاكل ."

- لماذا ترفض الاستغناء عنها إذن ؟

- لأنها أكثر من يفهم العمل ، وهذا الكلام قلته لك أكثر من ألف مرة .

* * *

يبدو أن ثمة مشكلة تواجه سحر ..فقد تعكرت صفحة وجهها بعد إجابتها مكالمة هاتفية جعلتها تبصق ابتسامتها المصطنعة على الأرض . سألها رفعت بقلق :"مالك؟"

قالت بضيق :" الوزير اعتذر."

قال بارتياح :" أحسن يا شيخة لنكون على حريتنا ."

ردت بانفعال:"ماذا تقول يا رفعت؟"

ببرود قال :" لا تشغلى بالك ."

تجمدت ملامحها وبدت غارقة فى جب أفكارها بعد أن تركها رفعت واتجه إلى ضيوفه .

هذه الحالة نفسها رأيتها فيها من قبل عندما أخذتنى إلى بيتها . منزل متداع كئيب ،جدرانه العهيدة مطلية بالرطوبة والأملاح .أصحابه يتمنون سقوطه على رأس سحر وأسرتها ليمكنهم الاستفادة من الأرض والأنقاض ، اعتلت وجهها الكآبة بمجرد أن دخلت البيت ، ثم رسمت ابتسامة مقهورة على شفتيها عندما وجدت خالد فى انتظارها .أخرجتنى من حقيبتها بعد أن حيته برقة وسألته :"ما رأيك؟"

- عيد ميلاد ؟ سألها .

- لا .. حفل افتتاح فرع الشركة الجديد. أجابت .

قال معاتبًا :"هل هذا ما يشغلك عنى؟ألم يحن الوقت لنتزوج يا سحر ؟"

تكلست ملامحها ، وبعد أن دهست ابتسامتها التى سقطت على الأرض،قالت :"أرجوك."

قال بانفعال:"لماذا ليس الآن ؟إننى لا أطيق البعد عنكِ ."

ردت بأسى :"ألا تعرف السبب؟ لمن أترك أمى المتداعية وأشقائى الصغار ؟ أأتركهم للجوع والشقاء أم للبيت الآيل للسقوط؟"

قاطعها خالد عندما لمح الدموع تترقرق فى عينيها وصوتها يختنق . نهض ليحتويها بين ذراعيه ويلثم عينيها قائلا: " لا عليك يا حبيبتى. سأصبر ولن أتخلى عنك أبداً ."

ألقت بنفسها بين ذراعيه باحثة عن الدفء والحنان .

* * *

اقتربت النهاية بلا شك .فقد استقر الرأى على أن يقوم رفعت بك بافتتاح المقر الجديد بنفسه،الخوف يكاد يكسر بللوراتى الزرقاء . رفعت بك يتقدم ترافقه سحر حاملة علبة أنيقة مغلفة بالقطيفة الزرقاء عليها يرقد مقص فضى لامع .أرزح تحت وطأة اللحظات الرهيبة،وطوفان الذكريات التى تترى على مخيلتى. مع كل خطوة تموت ذرة من ذراتى رعبًا .تباغتنى صورتها فتطرد كل ما عداها .كنا نقبع متجاورين فوق أحد أرفف الدكان المجاور لبيت سحر .هى حضرت بعدى وملكت علىّ أمرى .كنت لا أرى إلاّها بانسيابيتها الفاتنة ، ولونها الوردى المدهش ، وذراتها الأنثوية المتألقة ليل نهار ، وابتسامتها الطازجة الشهية . كانت حَيِيَّة جداً .فعندما قبَّل ياسرُ ابن البائع ،سعديةَ بائعة الفجل ،فى الدكان بعد إحكام إغلاقه ، كادت تشتعل خجلاً . ولما نظرت إليها بخبث وابتسامة دالة تلوح على قسماتى، كانت تروغ فأطاردها حتى تلتقى هالتينا فنذوب معًا فى بحيرة من الشهد والألق .كان البائع حانقًا علينا ، وكنا نكرهه.فهو رجل ضخم بشكل لافت ، يطلق لحيته بغير اعتناء ، ويفخر بأنه جرَّب "كل" - يقولها بفخر - أنواع المكيفات والحريم . وهو فظ ، قاس ، لا يردعه شيء ، وقد تسبب فى حدوث عقدة قاسية لحبيبتى ، عندما استدرج فتاة صغيرة أرسلتها أمها لشراء بعض احتياجات المنزل ، فأغراها بالنقود والحلوى ، وغلَّق أبواب الدكان ،ثم شرع يقبلها ويضمها إليه ، والطفلة منزعجة ، لا تفهم ماذا يفعل ولكنها تدرك أنه عيب . تمادى فى تعريتها ،ألقت الحلوى على الأرض وقالت متوسلة :"والنبى اتركنى يا عم صبرى" لم يُلق لها بالاً ..."سأقول لأمى" غرق لأذنيه فى مستنقعه العفن ، يلهث كأنه فى حلبة مصارعة ،يصر على النيل من

فريسته "حرام عليك"تبكى البنت الصغيرة فيغيب رأسها فى فمه الكهفى النتن ، ولأول مرة أرى دموع حبيبتى تنثال ،وذراتها تتصادم بانفعال شديد متأثرة ببكاء الطفلة ،التى جلست مشدوهة بعد أن قضى حاجته منها . .تحاول الصراخ،ولما تفشل تأخذ فى البكاء المكتوم . .ساءنى عدم قدرتى على فعل شىء . الآن أصبح رفعت بك أمامى مباشرة ، إلى جواره سحر تنظم وقوف الضيوف لالتقاط الصور التذكارية والإعلانية . تمد يدها إلى رفعت بالمقص، فيلتقطه منها ويقف مبتسما لعيون الكاميرات المتحفزة.

أصبحت النهاية حتمية . طفرت الى ذاكرتى صورة البائع الفظ . كان يرمقنى بشماتة يوم أغوى البنت ذات الضفيرة بحبيبتى الوردية ففرق بيننا . أكاد أذوب فرقا عندما تقترب يد رفعت منى شاهرة المقص فى وجه روحى ،تحطمت ذراتى من الحزن على فراقها .رجوته كثيراً أن يتركها معى . .أو يأخذنى معها .لكنه لم يحفل بصراخى .أشعر بذراتى تتفتت كلما تهيأ رفعت لقصى . أحاول الصراخ فلا أستطيع . تقترب سحر منى . تمسكنى بيديها الطريتين تاركة بينهما مسافة ليلتهمنى المقص منها .تنبعث من كفيها رائحة زكية .آخذ نفسا عميقا مستمتعا برائحتها العبقرية.

ينظر لها رفعت بخبث . يمد يده بحيث تحتك بنهدها . . ويقص .

أصرخ ، يعلو تصفيق الموجودين ، تتهشم ذراتى وتمتزج برائحة يدى سحر .تقهرنى صرخاتى الجزعة التى لا يسمعها غيرى . أنتشى بالشذا . ترى ،هل أجد حبيبتى هناك؟ تمتزج روحى النازفة بعبير سحر المدهش . أشعر بالتلاشى.أتمتم : كم أنت طيب الرائحة أيها الموت!

" أنا البطل . أنا البطل يا بلد"

قالها بصوت مفعم بالأسى ، ثم طفقت دموعه في الانحدار على وجنتيه بلا ضابط ولا رابط .

كانت البنت الجميلة جمال القمر ليلة ١٤ ، تتربع على سماء قلوب شباب وكهول القرية .معها يصبح السيد عبداً ، والعبد كلبًا . يقسم الجميع بجمال عينيها ، وعنفوان نهديها ، وانسيابية قوامها الذى – كما يقول عبد الجبار – لم يخلق مثله أبداً فى الإنس ولا الجان .

انفلت الولد "برعى" – الذى يسمونه سحلية – من بين يدى أبيه الذي كان ينوى ضربه علقة لا يأخذها حمار فى مَطْلَع ، ولا حرامى فى حارة سد ؛ لأن برعي فضح سره وجعله "لبانة" فى أفواه الذين يسوون والذين لا يسوون .

كانت النظرات الحارقة تخترق حدود "عبد الجبار" .قال محدثا نفسه ، بعد أن زفر نفسًا حاراً ، كاد ينشر الدخان فى حدود فضائه الضيق:
" والله البنت دي قمر ١٤ ، لأ .. دى أجمل منه كتير " .

تمايلت "حسنات" بدلال مكشوف بعد أن قررت بينها وبين نفسها أن تغرز أنف عبد الجبار فى طين الأرض ليثمر همًّا ، وغمًّا ، وعاراً ، لا يمحوه الزمن عن عائلة "العايئ" كما كانت تسميها .

« أنا البطل . أنا البطل يا بلد »

كان الصوت حاداً ينزف حزنًا حين اخترق سكون الليل المنصوب على أطراف القرية يمنح أهلها بعض الراحة ، بعض الوقت ، استعدادا للأمر الجلل وشيك الحدوث .

لم يكن عبد الجبار رجلاً سئ الخلق فحسب ، وإنما كان - أيضًا - لصًا يسرق الكحل من العين ..لكنه - رغم ذلك - مرهوب الجانب ، لا يستطيع أحد أن يواجهه بنقائصه وزلاته ؛ لأنه ينتمى إلى عائلة كبيرة ، قوية ، هى عائلة "المرجوشي" أو"العايئ" كما تسميها حسنات ، هذه البنت التي تهتز قلوب رجال القرية بمجرد شروقها ، وتأفل الشمس ويختنق النور عندما تتوارى خلف سواتر دارها.

الوحيد الذى كان لا يعنيه شيئًا ،ظهرت الشمس أو أفلت ، هو الولد العبيط برعى ، الذي يسمونه سحلية ؛ لحركاته المضطربة الحذرة التى تشبه ترقب السحالى ، وانفلاته وروغانه السريع الذى يحاكى انفلاتها ، فضلاً عن وجه الشبه بين ملامحه - سبحان الله - وملامح السحالى .

تهاوى "منصور" غير قادر على المقاومة بعد أن تثاقلت عليه الهموم وعانى من جحود الجميع وتآمرهم عليه .. وهو الذى يريد لهم الخلاص من المهانة التى تطأهم كل يوم مئات المرات من عائلة المرجوشي ، التى تعتبر نفسها ممثل الإله على الأرض لتحقيق العدالة .. وهى فى الحقيقة ذروة الظلم والافتراء .

بدأت حسنات فى نصب شراكها الخادعة فى طريق عبد الجبار الذى كان مهيئًا تمام التهيؤ للوقوع فى شراكها اللذيذة دون تفكير .

الوحيد الذى نبض قلب حسنات له ، ورقص عندما رآه ،هو منصور . لكنها لم تنل منه إلا التنائى..فقد انقلبت معه الآية ،فكانت هى التى تطارده ،وهو الذى يهرب منها ، وقد أشعل هذا التصرف منه نار الحب فى قلبها ،وتأجج الشوق بدرجة جعلتها تقضى أيامًا طريحة الفراش .. تلعن فيها منصور وأهله واليوم الذى رأته فيه ،ثم لم تلبث أن عادت إليه بعد تمام شفائها.. لكنها لم تطارده ، وفضلت أن تغلق قلبها على حبها ، وتخلص له رغم عدم اهتمامه بها .. ربما لشعورها بأنه يحبها ولكنَّ شيئا ما يمنعه من مصارحتها وممارسة الحب معها .. وغالبًا عائلة المرجوشى هى هذا الشيء .

"أنا البطل . أنا البطل يا بلد "

الوحيد الذى حضر مهرولاً ليتبين حقيقة الصوت البائس الذى يشق آذان الليل ،كان برعى .. وهو ولد طيب رغم أنه - كما يؤكد الجميع - عبيط، وجهه بيضاوى ممصوص ، وعيناه لا تستقران على شيء ، دائمتا الاضطراب والترقب ، وكأنه مطارد على الدوام .

كانت البيوت تحبس بأحشائها سكانها ؛ خوفا من بطش قناصة الليل الذين - كما يعرف الجميع - ليسوا سوى أفراد عائلة المرجوشى،

الذين لا يتورعون فى قتل كل من تسول له نفسه الخروج تحت وطأة الليل ؛ حتى يمارسوا موبقاتهم بعيداً عن أعين العباد .

اصطدمت عينا برعى السوداوين بمصدر الصوت الحزين الذى يهترئ فلا يقوى على اختراق حواجز الصمت الجاثمة على صدر القرية النائمة . كان الصوت لا يزال يخرج حزينا منكسرا ، مرددا عبارته الأثيرة ، ولما رأى برعى يقف أمامه ، قال وكأنه يستشهد به "أنا البطل يا برعى ...."

هز برعى رأسه مواسيا منصور ، الذى بدأ يعتدل وتطمئن نفسه لمساندة أحد أبناء القرية له ،ومشاركته أحزانه .. حتى لو كان هذا الذى هب لمساعدته ..سحلية .

هدر منصور ثائراً يسب ويلعن هذه القرية الظالم أهلها ،ولم ينس أن يلعن اليوم الذى أتى به إليها وجعله يستقر فيها بعد أن هجرها تمامًا واستقر فى المدينة . كان برعى يهز رأسة علامة الفهم .. لكن فمه لم يفرز طرف كلمة .استمر منصور فى ثورته بينما كان برعى مشغولا فى قراءة عينيه .كان يرى دبابات وطائرات وقنابل تنفجر فتتطاير على إثرها الأشلاء مختلطة بالرمال والأحلام الضائعة.

كانت حسنات تقاوم رغبة جامحة تؤجج شوقها إلى منصور الذى يهملها تماما .. رغم ذلك فقد بدأت الألسن تحيك القصص الخيالية عن العاشقين اللذين يلتقيان تحت ستار الليل بعيدا عن أعين العباد

والقناصة، وجعلت هذه الحكايات عبد الجبار يستشيط غضبا ،ويفكر فى حل خبيث لإنهاء هذه العلاقة الآثمة . ارتعشت أوصال حسنات عندما تخيلت ما يمكن أن يفعله عبد الجبار بمنصور .. فضاعفت نظراتها للأول ، وحاولت - رغم حبها الشديد - الانصراف عن الثانى .

قال منصور بأسى :"لقد نسوا أنهم هم الذين أطلقوا علىّ لقب البطل ."

انتفض فجأة بعد انفجار قنبلة على مسافة ليست بعيدة عنه ، كانت الرصاصات تنتشر فى المكان ، بينما يتقدم ثابتًا هو وزملاؤه .. يطلقون فرحتهم الحبيسة فى شكل صيحات تهتز لها حصون العدو . كانت الانفجارات والرصاصات الجبانة التى تخرج مرتعشة من المزاغل ، والدبابات المذعورة .. غير قادرة على وقف الزحف الهادر . كانت القلاع تتساقط واحدة ، واحدة وتتهاوى معها أوهام مرة المذاق ؛ لتسمق صيحات وأحلام تنطح السحاب ، وترفرف بألق زاهٍ فى عيون العابرين .

حاول برعى مواساته . انفلتت دمعة حارة من عين منصور :" كل هذا ينسونه .. كيف؟"

غامت عينا برعى بالدموع التى لم تلبث أن أفلتت من حصارها تتلمس طريقها لمواساة دموع منصور الساقطة على الأرض .

بدا عبد الجبار شديد الاعتزاز بنفسه، مزهواً كطاووس يتبختر فرحًا بتحقيق أمنيته أخيراً ، فهو يرى بعينى رأسه حسنات ، فتنة الليل والنهار ،تقف أمامه بشحمها ولحمها ..فى داره، ولا يوجد معهما أحد .

كانت الأفكار تتنازعها .لا تدرى ما الذى أتى بها فى هذه الساعة المتأخرة من الليل .. فبعد أن سمعت صرخات منصور تشق جدار الليل الهش ،لم تدر بنفسها إلا وهى أمام عبد الجبار .. فى عقر داره .

مع خيوط صباح اليوم التالى .. كان الخبر منتشراً فى القرية كلها .

فقد وجدوا جثتا منصور وسحلية مكومتين بأحد أزقة القرية ، وسط بقعة كبيرة من الدماء المتخثرة.أما عبد الجبار فوجدوه مكومًا فى داره مطعونًا طعنة نافذة فى قلبه .

بينما أفلت الشمس واختنق القمر لاختفاء حسنات من القرية إلى الأبد .....

الفهرس

الكاتب

- أحمد كمال زكى .

- مولود فى ١٤/٤/١٩٧٠ بمحافظة بنى سويف .

- حاصل على بكالوريوس تجارة ويعمل صحفيًا .

- نشرت أعماله فى عدد من الدوريات المصرية والعربية منها : الثقافة الجديدة - أخبار الأدب - مجلة القصة - مجلة الشعر - مجلة الكويت - مجلة المجلة العربية السعودية .

- حصل على عدد من الجوائز فى الشعر والقصة القصيرة آخرها جائزة نادى أبها الأدبى فى السعودية (المركز الثانى فى مجال القصيدة) ، وجائزة القصيدة الأولى فى مسابقة طنجة الشاعرة بالمغرب عام ٢٠٠٢ .

- له قيد الطبع : ديوان " اشتعالات الوداع " يصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة .

صدر من الكتاب الأول

العنوان	النوع	المؤلف
١ - صحراء على حدة	قصص	عاطف سليمان
٢ - دراسة فى تعدى النص	نقد	وليد الخشاب
٣ - حدث سرا	قصص	أمينة زيدان
٤ - رسوم متحركة	شعر	صادق شرشر
٥ - ليس سواكما	شعر	عبد الوهاب داود
٦ - احتمالات غموض الورد	شعر	طارق هاشم
٧ - تدريبات على الجملة الاعتراضية	قصص	مصطفى ذكرى
٨ - كلوديوس	مسرحية	محمد السلامونى
٩ - مسرحيتان من زمن التشخيص	مسرحية	محسن مصيلحى
١٠ - ليكن	شعر	هدى حسين
١١ - أحلام الجنرال	مسرحية	محمد رزيق
١٢ - حفنة شعر أصفر	قصص	محمد حسان
١٣ - يستلقى على دفء الصدف	شعر	عطيه حسن
١٤ - النيل والمصريون	دراسة	حمدى أبو كيله
١٥ - الأسماء لاتليق بالأماكن	شعر	عزمى عبد الوهاب
١٦ - العفو والسماح	قصص	خالد منتصر
١٧ - ناقد فى كواليس المسرح	دراسة	مصطفى عبد الحميد
١٨ - أطياف شعرية	نقد	عبد الله السمطى
١٩ - أنا	نصوص	غادة عبد المنعم
٢٠ - سارق الضوء	قصص	ليالى أحمد
٢١ - رجع الأصداء	نقد	جليلة طريطر
٢٢ - شروخ الوقت	شعر	ماهر حسن
٢٣ - أغنية للخريف	قصص	عاطف فتحى
٢٤ - بائع الأقنعة	مسرحية	صلاح الوسيمى
٢٥ - بائع الأقنعة	قصص	شوقى عبد الحميد
٢٦ - كوجهك حين ارتحال الصباح	شعر	خالد حمدان
٢٧ - وشيش البحر	رواية	أمانى خليل
٢٨ - ناصية سليمان	قصص	مجدى حسنين
٢٩ - أغنية الولد الفوضوى	شعر	محمود المغربى
٣٠ - سؤال فى الوقت الضائع	قصص	مدحت يوسف

العنوان	النوع	المؤلف
٣١ - كرحم غابة	شعر	خالد أبو بكر
٣٢ - الآخر	مسرحية	ياسر علام
٣٣ - جسر الأصابع	شعر	أشرف يونس
٣٤ - سقوط ثمره وحيدة	قصص	حسن صبري
٣٥ - أمسيات عائلية	شعر	سعيد أبو طالب
٣٦ - ملامح وأحوال	نقد	ناصر عراق
٣٧ - كتابة الصورة	نقد	محمد مختار
٣٨ - نتاج الخوف	مسرحية	ناصر العزبي
٣٩- عناصر الإضحاك في مسرح بديع خيري	نقد	محمد زعيمة
٤٠- أول أول	حكايات	محمد ناصر
٤١- وهج الكتابة	نقد	حسان بورقية
٤٢- البنت مصرية	قصص	مصطفى الشافعي
٤٣- قبل إكتمال القرن	رواية	ذكرى نادر
٤٤- تجري بسرعة فائقة	شعر	سحر سامي
٤٥ - تفكيك الرواية	نقد	فتحي أبو رفيعة
٤٦ - نفس طويل	قصص	راندا طه
٤٧ - الميتامورفوسيس في المسرح الحديث	نقد	مروة مهدي
٤٨ - في الستة أيام زيادة	شعر	جمال فتحي
٤٩ - ماتحاولش	مسرحية	مصطفي سعد
٥٠ - الفن الفطري في مصر	نقد	ضحى أحمد
٥١ - كائن خرافي غايته الثرثرة	شعر	نجاة علي
٥٢ - لون هارب من قوس قزح	رواية	منى الشيمي
٥٣ - الشرك	قصص	ليلى الرملي
٥٤ - الرغبات	قصص	فارس سعد
٥٥ - لن تدرك سرك	رواية	أحمد عادل القضابي
٥٦ - حاجات تانية	شعر	محمد عبد الحميد دغيدي
٥٧ - خازنة الماء	شعر	فتحي عبد السميع
٥٨ - قص ولصق	قصص	مجدي عبد الهادي
٥٩ - عيون سمارة	أوبريت	فرغلي مهران
٦٠ - السـ[illegible] نقطة مفترضة	شعر	محمد أحمد العشيري
٦١ - [illegible]ان	قصص	أحمد كمال زكي
٦٢ - أثر الأعمال الأدبية في الملتقى	نقد	فاطمة فوزي

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٧٧٤ / ٢٠٠٢




المجلس
الأعلى
للثقافة